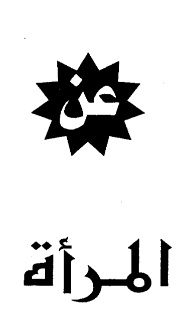
القرآن يتحدث



المرأة

تأليف

عبدالرحمن البربرى

1421 هـ ـ 2001 م

* الكتـــــاب : **القرآن يتحدث عن المرأة**
* الــكـــاتـــب : **عبدالرحمن البربرى**
* الطبـــعـــة : الأولى 2001.
* الناشـروالتـوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

تليفاكس : 3305538 ـ 3321744 / 040

☎ : 2120277 ـ 2120907 / 040

أصالة للتجارة والتسويق ـ الزقازيق

تليفاكس : 353988 / 055

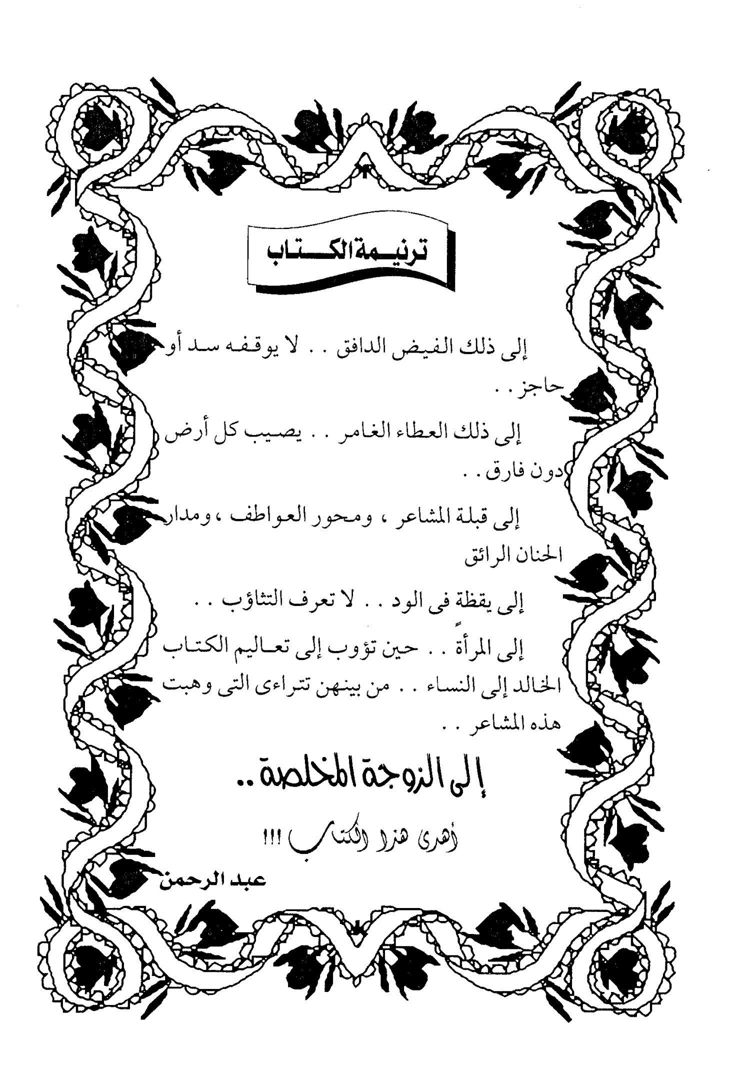
* التـجـهـيـز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس : 2120277 / 040

* الإيداع القـانونى : 11737 / 2000
* التـرقـيم الدولى : I . S . B . N 977 - 278 - 169 - 8

Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg



ترنيمة الكتاب

إلى ذلك الفيض الدافق . . لا يوقفه سد أو حاجز . .

إلى ذلك العطاء الغامر . . يصيب كل أرض دون فارق . .

إلى قبلة المشاعر ، ومحور العواطف ، ومدار الحنان الرائق

إلى يقظة فى الود . . لا تعرف التثاؤب . .

إلى المرأة . . حين تؤوب إلى تعاليم الكتاب الخالد إلى النساء . . من بينهن تتراءى التى وهبت هذه المشاعر . .

إلى الزوجة المخلصة . .

أهدى هذا الكتاب !!!

عبد الرحمن



المقــدمــة

إلى متى تظل المرأة حبلى بالأرزاء ، ثكلى لا تفيق ؟! لا تكاد تنهض من عثرة حتى تتردى فى عثرات ، ولا تكاد تتعافى من داء حتى تفترسها أدواء . . تخاف منَ ظلها ، وتتخبط فى مشيها . تأخذها الغصة ، وتهلكها العثرة ، كأن على عينيها غشاوة ، فلا يتبين لها الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ولا يتميز لها الماء من السراب ، كأنها دون سن التمييز . . قد تنازعوها ، حتى مزقوها إرباً إرباً ، وشرعوا يفرضون الوصاية على أشلائها المتناثرة ، فاختطوا خططاً هالكة ، واستنوا سُنَناً ظالمة ، فتجرعت حميماً وغَسَّاقاً ، ولاقت ويلاً وثبوراً !

لقد داستها الجاهليةُ الأولى ، وخدعتها الأنظمةُ الحديثة ؛ ففى الأولى كانت رجساً يُحتقر ، ومتاعاً لا يُؤبَهُ به ، وسائبةً ترعى مع السوائب ، قد ساموها سوء العذاب ، ؛ يقتلون فيها إنسانية الإنسان ، ويستحيون فيها دناءة الحيوان ، ووضيعة الإرث والمتاع . فقد كانت عندهم رمز العار ، وباب الذل والهوان ، فغدت مَوْءُودَةً، قد وأدها ذوو الأحلام دون روية واتئاد ، فأتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً ؛ بل كانت نسياً منسياً ، وعيباً معيباً !

ولم يكن العصر الحديث أرأف بحالها ، بل كان ألأم وأخبث ! فرفع شعارات زائفة ، ونادى بحرية صلعاء ، واتخذ من المرأة معبراً لأهداف خسيسة وطيئة ، ومدخلاً إلى كسب وضيع ، تُداس فى طريقه كرامة المرأة وعفّتها ، فغدت فى أيديهم دمية ، زينوَها بكل ألوان الزينة ، وقدموها جسداً عارياً لا روح فيه ولا قيمة، فانزلقت إلى فوضى حسبتها حريةً ، وما هى من الحرية فى شىء ! بل خواء مرير ، وشبح يطاردها كل آن !

بيد أن الإسلام قد انتشلها من براثن الظلم الأول ، ومن مراتع المكر الأخير وأعاد لها عزتها ومكانتها ، وردَّ لها عفتها وطهارتها .

وتحدث القرآن عن المرأة ، فكان حديثه باهراً ، وبيانه رائعاً ، وقد تفيأ ظلاله

عن اليمين والشمائل هدى ورحمة ، فطاب المقام ، وكثر المغدى والمراح ، وكانت الثمار يانعة ، والفوائد عديدة وعظيمة .

ويلحظ القارئ الكريم فى هذا الكتاب مسحةً من الفلسفة ، وفيضاً من الأدلة العقلية ، وبعضاً من السجع الخفيف دون إطناب أو إخلال .

كما يلحظ القارئ العزيز أننا لم نخاطب المرأة المؤمنة فحسب ؛ بل توجهنا بهذا الكتاب إلى النساء فى شرق الأرض وغربها ؛ حتى تعم الفائدة ، ويشمل نفعه القاصى والدانى .

والله نسأل أن يغفر لنا ، وأن يتقبل منا ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾

مريم البتول . . القديسة ابنة عمران ، سمة الطهر ، نبع الصفاء ، أم عيسى المسيح . . تلك المعجزة الباقية ، وذلك الزهد الوضيئ .

ولكنّا نبدأ القصة من حيث بدأتها السورة التى تحمل اسم « آل عمران » ، وهم آل مريم كذلك .

تنسج السورة خيوط البداية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (1) .

نعم . . اصطنعهم الله لنفسه ، واصطفاهم على العالمين ، وأعلى مدارجهم فوق البشر . وآل عمران من الأخيار . . ألقى عليهم محبته ، وصنعهم على عينه .

وآنئذ تبدأ ترنيمة خاشعة من ترانيم هذا الوحى العجيب :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (2) .

امرأة عمران ـ أم مريم ـ تطمئن إلى خلوتها وانفرادها ؛ لتناجى الرب أن يرزقها الولد ، فيُستجاب لها . . وتفجأ به يتحرك فى أحشائها ، وأمام هذه الفرحة الغامرة ، لا تنسى أن تتوجه بالشكر إلى ربها ، ولكنه شكر من نوع خاص : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ .

لقد نذرت جنينها ، وهو ما زال بين جنبيها لم تره بعد . . نذرته لله محرراً خالصاً !

محرراً . . من كل شىء يتعلق بهذه الدنيا الفانية ، فلا يشوبه من أمرها شىء .

محرراً . . من شهوات النفس ، ونزوات الهوى ، وملابسات الطين والدم .

---

(1) آل عمران : 33 .
(2) آل عمران : 35 .

حراً . . من كل شيء يجذبه إلى هذه الأرض ، ومن كل واشجة تلصقه بها ، أو تشده إليها .

خالصاً لله . . لا ينازعه فيه أحد ، ولا يشاركه فيه قريب ، ولا صديق حميم .

خالصاً لله . . لا يصرف شيئاً من أمور حياته لغيره ، فهى وقف له سبحانه .

خالصاً لله . . فليس لنفسه من نفسه نصيب ، وليس له من حظوظ الدنيا تالد أو جديد .

محرراً . . يخدم بيت المقدس ، يتعبد للرب ، يصير من الأحبار الزهاد .

وقد تم النذر ، وبقى القبول !

لقد حررت جنينها خالصاً للرب قبل أن تراه ، ولما تعلم اسمه أو رسمه ، ولكنه الإيمان الذى لا يؤجل العطاء ، ولا يبخل بالنفيس على الخالق الوهاب . . حررته لأنها كذلك محررة . . من وشائج الأرض ، وجواذب الطين ، وحظوظ الحياة . . خالصة لله لا يشوبها شيىء من لذائذ أو شهوات . إنها ذرية بعضها من بعض . . وإنها نموذج كذلك للأم العابدة التقية ، وهى تتوجه بوجهها للذى فطر السموات والأرض . . تهب أغلى ما تملك ، وتحرره للرب خالصاً ، فينهل من معين الطاعة ما شاء له أن ينهل ، وليُصنع على عين المحبة لله الواحد ، ولينشأ على تعاليم الدين ، وصفاء القلوب ، وطهارة الروح .

ورَجَت امرأة عمران القبول ، بعد أن قدمت أسباب القبول ، ولكنه قلب المؤمن حين يتعلق بربه المنعم ، وحين يتلمس منه الرضا والجود .

وتفجأ المرأة الخالصة بما لا يخطر لها على بال ، ويسجل القرآن هذه اللحظة التى تمتزج فيها العاطفة بجديد المفاجأة :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [1] .

(1) آل عمران : 36.

لقد جاءت أنثى ، وليس الذكر كالأنثى فى قوة العبادة ، وتحمل مشاق الطاعة ، وخدمة البيت . . وقد خالته[1] ذكراً ؛ لذا رجت ونذرت . . فإذا به أنثى ، فتدهش قليلاً وتحتار !

ولم تكن الدهشة مبعثها الكراهة ، فهى لم تكن تكره الأنثى ، كما يفعل كثير من الخلق قديماً وحديثاً ، وينسون أن للأنثى مفاتيح خير لا يعلمها إلا الخالق الوهاب ، ولها من الرزق الواسع ما تطيب به الحياة . . ولكنه نضوب الفكر حين يحصر الخير فى البنين دون البنات ، فكم من ذكر جلب لأهله الهلاك ، وكم من أنثى كانت مفتاح البركة والنماء . . ولكنه ضيق الأفق حين لا يقبل هبة الله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾[2] ، وحين يفرق بين عطاء وعطاء !

بيد أن هذه الفجأة لم تخرجها عن سمتها الخاشع ، ويقينها الراسخ ، فما تزال فى نجاء مع ربها يفيض جلالاً وبهاء ، ويشى بإيمان عميق ، وإخلاص دفين : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ .

وكأنها تستأذن ربها فى تسميتها ، وكأنها تستخير : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ .

ومريم فى لغتهم تعنى العابدة خادمة الرب ، فجاء الاسم متسقاً والغاية من هذا النذر . . إنه اسم كريم المعنى ، خفيف اللفظ ، قد اختارته الأم ، لا كما يختار الأمهات فى هذا العصر الأخير !

وترسل الأم العابدة نداءها الأخير :

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

فاستجاب الله لها ، وكان من الأنثى خير لم تتوقعه ، كما لم تتوقع حين حملت أن يكون أنثى . وهل كان يقع فى خاطرها أن يكون من هذه الأنثى رسول كعيسى المسيح ؟!

وتحمل « حنَّة » أنثاها ، وقد لفتها فى خرقة ، وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها

---

(1) ظنته .
(2) الشورى : 49 .

عند الأحبار في بيت المقدس : « دونكم هذه النذيرة ، فإنى حررتها ، وهى أنثى » . . فتنافسوا أيهم يكفلها ؟ فاقترعوا بأقلامهم ، التى يكتبون بها التوراة ، أو ألقوا بها فى النهر ، فأيهم يثبت قلمه فهو كافلها ، فقرعهم زكريا ، فكفلها ، وكان زوج خالتها .

وكأنَّا نشهد هذه اللحظة التى يلقون فيها الأقلام أيهم يكفل مريم ، وكأنَّا نرقب ذاك الاقتراع . . نتطلع إلى الأحبار ، وهم فى سمتهم الخاشع ، ورسمهم الرزين ، وهم يتسابقون ، كلهم يريد أن ينال الحظوة ، ويضم هذه الوليدة إلى كفالته . كأنهم أحسوا بركتها ، أو تلمسوا نورها ، أو ظنوا لها شأناً وذكراً . . حين أبصروا طلعتها ، أو تراءى لهم هيبة الطهر ، وجلال القداسة فى وجهها ، أو كأنهم تنافسوا لأنها بنت إمامهم عمران ، فأرادوا تكريمه وتقديره .

كأنَّا نستشرف هذه اللحظة بعد هذه القرون المتباعدة . . نتطلع إلى أقلام الأحبار ، وهى تتهاوى أمامهم فى النهر ، فلا يثبت إلا قلم زكريا عليه السلام ، وهى نفس الأقلام التى يكتبون بها كلام الله . . كأن ذلك إرهاص لأمر عظيم قد أظل أوانه !

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [1] .

أجل . . لم يكن أحد معهم ، حين ألقوا أقلامهم فى هذا المشهد المهيب ، ولكن الله كان هناك يسمع ويرى ، يتطلع إلى صفوة العبّاد ، وهم يتدافعون نحو هذه الوليدة ، وهى محررة خالصة من شوائب الدنيا ، وحظوظ الحياة .

﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ كأنها شيء آخر دون الإناث ، وكأنها هبة نزلت عليهم من السماء ، وكأنها جوهرة ثمينة أو كنز قد أتى من الجنان . . وكأنه شرف عظيم يناله من يحظى برعاية هذه الأنثى ، ويتولى الخدمة والإشراف !

ولكن مريم تبلغ مبلغ النساء ، وتنزوى في محرابها تتعبد دون كفالة أو وصاية .

وتتوالى نداءات الملائكة توجِّه « البتول » إلى مزيد من الركوع والسجود والقنوت ، وأن الله قد اصطفاها على نساء العالمين :

(1) آل عمران : 44.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [2] .

لقد كانت حَرية بهذا الاصطفاء ، حَرية بهذا الاهتمام ، وذاك الاحتفاء . . لم تكن كغيرها من النساء . ألم تكن محررة مذ أن كانت جنيناً ؟! ألم تكن طاهرة قديسة ؟! ألم تكن عابدة خادمة للرب ؟! . . لم يخالط قلبها ما يخالط قلوب النساء ، ولم تعرف ما هى الذنوب ؟ وما هى الآثام ؟! . . لم تعرف إلا المحراب وما اتخذته من حجاب . . ولم تعرف إلا الركوع والسجود والقنوت فى الصلاة . إنها نموذج آخر من النساء ، تستحق أن تُصطفى على نساء الأرض ، ونستطيع كذلك أن نقتبس شيئاً من طهارتها . . شيئاً من صفائها . . شيئاً من عبادتها . . نستطيع أن نقتبس أشياء كثيرة ، ونهبها إلى بناتنا ونسائنا .

ولكن مريم وهى مطمئنة إلى خلوتها ، يدخل عليها الملك بشراً سوياً ، فتفزع وترتاع ، وتتوسل إليه أن يبتعد ، وأن يتقى الله :

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [3] .

وحين يخبرها برسالة الرب ، تأتى كلماتها أشد براءة من المرة الأولى :

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [4] .

فأى طهر هذا ؟! وأية براءة هذه ؟! وأية فطرة فطر الله هذه الأنثى عليها؟!

إنها صفات تندر فى النساء ، وتندر جداً !

وتشعر بالحمل يتحرك فى أحشائها ، كما كانت تشعر أمها حين حملتها ، ولكنه ذكر الآن ، وذكر محرر خالص كذلك .

وحين أحست بالمخاض اصطرعت فى نفسها شجون ، واشتجرت فى خواطرها هموم ، كأنما حطَّ على صدرها كل كروب الدنيا ، فلا تنبس ببنت شفة إلا أن تفزع وتقول :

---

(1) آل عمران : 42 .
(2) آل عمران : 43 .
(3) مريم : 18 .
(4) مريم : 20 .

﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (1) .

وتسمع النداء ، يأمرها بألا تحزن ، وأن طعامها وشرابها من فوقها وتحتها : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (2) .

وكأننا نتطلع إليها ، وهى تهز جذع النخلة بيديها ، فيتساقط عليها رطباً جنياً ، فتأكل وتقر عيناً .

وعندئذ تكون قد قامت بكل شىء ، وجاء دور الصمت وعدم الكلام :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (3) .

نذرت للرحمن صوماً ، كما نذرتها أمها محررة خالصة ، والنذر للرحمن ، لا لأحد سواه . . وكأن هذه الذرية قد نذرت « كلها » لله سبحانه !

وتحمله إلى قومها ، وقد تسرعوا فى الحكم والتجريح :

﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (4) .

وهنا تتدخل القدرة الإلهية ، حين تكتفى بالإشارة إليه :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ (5) .

وينطق الوليد بقدرة الله :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ (6) .

إنها حلقة وضيئة من حلقات أولى الطهر والعبادة ، وفصل متجدد من فصول الإخلاص والقداسة . . ما زالت البشرية تستضىء به ، وهى تسير فى دربها الممتد إلى قيام الساعة . . تظل تنهل من معين هذا النور ما شاء لها أن تنهل ، وتظل تتطلع كذلك إلى ذلك الأفق الوضىء ما شاء لها أن تتطلع . . ولكنما الإخلاص هو السبيل !!!

(1) مريم : 23 .
(2) مريم : 25 .
(3) مريم : 26 .
(4) مريم : 27 .
(5) مريم : 29 .
(6) مريم : 30 .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[1]

شرع الله الزواج لبنى آدم تكريماً لهم ، وإتماماً لنعمته عليهم ، وتطهيراً لهم من أوضار الرجس ، ومن مراتع الإثم والفحش ، ومُرْتقى لهم إلى أفق التحصن والعفاف ، بعيداً عن السفاح والانحلال . وجعل للزواج حقوقاً وواجبات وشروطاً وتبعات ، لم يغادر فى ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع شاردة ولا واردة إلا بيَّن وأظهر ، وخص ذلك بالآيات والسور العظام ، فأبعد الناس عن مدارج الحيوانية ، وأخرجهم من أرباض الرذائل ، ومسارح العري والفواحش ، إلى مروج الوضاحة والوضاءة ، فأصاب الناسَ ندىً وهدىً وطهارة .

وفى الزواج مكرمة للمرأة أيما مكرمة ؛ فهو الجاعل لها بيتاً دونه التشرد ، وجاعل لها زوجاً دونه الأخدان والذئاب ، وجاعل لها أمومة دونها الانكسار والحرمان ، وجاعل لها حمىً دونه كلأ مباح لكل راتع .

والزواج مُستقَر للرجل ؛ به تهنأ نفسه ، ويهدأ روعه ، وبه يمارس دوره ، ويسعد بأبوّته ، وبه يرى للحياة هدفاً ، ولنفسه آمالاً وطموحات ، ولذاته مكانة وقيمة .

يدافع عن حمىً هو حاميه ، وعن رعية هو ربها وساترها .

ودون الزواج شر أى شر ، ما زالت البشرية تحصد ويلاته يوماً بعد يوم ، منذ خرجت عن سَوائها ، وغفلت عن شريعة ربها ، فاصفرتْ يدها من الطهر والعفاف ، وانغمست فى حمأة الشهوات الخليعة الماجنة .

ولم يكن العرب من هذا الشر ببعيد ، رغم تمسكهم بالزواج ، وحرصهم عليه . ولكن أصابنا دَخَنُ التصورات الخاطئة ، والأفكار المستعارة ، والمبادئ الوضيعة ، وأصيب المجتمع العربى بشر داء ؛ هو داء تأخر الزواج للشباب ، أو داء « العنوسة » للبنات . هذه « العنوسة » التى غدت سيفاً مصلتاً على بيوتنا ، فازدحمت

---

(1) النحل : 72 .

بالعانسات اللائي أُصبنَ بكثير من الأرق والكآبة والانطواء ، وصارت الحياة فى أعينهن سوداء كالحة ، ومن ثَم تعطلت مكامن العطاء لديهن ؛ لأن الزواج يعين المرء على أداء رسالته فى هذه الحياة ، فيعزف على أوتار العطاء ألحاناً قوية دون كلل أو ملل ، فتعجّ الحياة بالطاقات الطافرة الغامرة ، التى لا يصيبها ركود أو كساد . و« العنوسة » دون ذلك ؛ لأنها تعنى التوقف والانزواء ، وتعنى كذلك الذبول والانغلاق ، ونحن عن حل هذه المشكلة العويصة غافلون ؛ لأننا لا نكابد ما يكابدنَ :

لا يُدرك الشوق إلا من يكابده   ولا الصبابة إلا من يعانيها

وأسباب تأخر الزواج فى عالمنا العربى أو افتقاده كثيرة ومتعددة ، أهمها إقصاء جوهر الدين ، وإغفال روح الإسلام فى هذا الجانب ، فاستبدلنا يسير الشرع بعسير العرف ، وقلنا التمسْ ولو قنطاراً من ذهب بدلاً من « **التمسْ ولو خاتما من حديد** » ، فارتحلت البركة منَ مجتمعاتنا ، فلم يعد كثير منا يجد شيئاً يلتمسه ، إلا الحيرة والانتظار والترقب !

ولو نظرنا إلى مجتمع الصحابة لوجدنا الزواج من أيسر الأمور وأهونها ؛ فكان الواحد منهم يصبح أيِّماً (عازباً) ويمسى متزوجاً ، ويمسى أيِّماً ويصبح متزوجاً ، دون حرج أو إعنات ، ففاحت لديهم أرائج التحصن وراحة البال ، وفاحت لدينا أشياء أخرى ، فزرعنا بأيدينا التعقيد والتصعيب ، فكان الحصاد صاباً علقماً ، ووضعنا لأنفسنا طقوساً وأعرافاً في الزواج ما أنزل الله بها من سلطان ، فطفقَ الناكح الذى يريد العفاف يتقلب من عرف إلى عرف ، ومن عادة إلى أخرىَ ، فنضيف إلى التأخير تأخيراً ، وإلى التعقيد تعقيداً . وتضطرب لذلك البيوت ، وتُقرع الأجراس ، ويتحول الزواج إلى ملحمة يجب النفرة لها ، والزحف صوبها ، وخوض غمارها ، وكأنه العقبة التى يجب اقتحامها ، فغاب تيسير الله عنا ، وأصابنا التعقيد كله ، ولازمتنا الحيرة مثل ما لازمت هذا الرجل ، الذى جعل من زواج ابنته عقدة لا تُحل أبداً :

أُحِبُّ بُنَيَّـتي ووددْتُ أنــي ... دَفنتُ بُنيَّتي في قــاع لحـد
ومــا بي أنْ تَهُــون عليّ لكن ... مخافة أن تذوق الذُلَّ بعدى
فإن زوَّجتُها رجلاً فقــيراً ... أراها عنده والهَمُّ عنــــدى
وإن زوَّجــتُهــا رجلاً غنيــاً ... فَيلْطِمُ خَدَّها ويَسبُّ جَــدّى
ســألُت الله يأخـذها قـريبـاً ... ولوكانت أحبَّ الناس عنـدى

وإن تَعْجبَ فعجب أن المظاهر صارت لازمة القبول والإيجاب ، وأصبح كثير من الناس يغضون الطرف عن الخلق والدين ، ويستحوذ على أفئدتهم وأبصارهم ذلك الشاب المَلِيء العريض . وقد أعجبنى « كثير عزة » حين دخل على الخليفة عبدالملك بن مروان ، فلم يألف الخليفة صورته ولا منظره ، فأنشده « كثير » هذه الأبيات الرائعة :

ترى الرجل النحيف فتـزدريه ... وفي أثوابه أسـد هصــــور
ويُعجبك الطرير إذا تــــراه ... فيُخلف ظنك الرجل الطرير
بُغاث الطــــير أطولها رقاباً ... ولم تطل البزاة ولا الصــقور
ضعاف الأسد أكثرها زئـيراً ... وأصرمها اللواتــى لا تزيــر
وقَـد عَظُم البعيـر بغيـر لب ... فلم يستغن بالعظــم البعير
فـمـا عظم الرجـال لهم بـزين ... ولكن زينهــم كــرم وخيــر

وهذه المظاهر هي التى كوت البيوت بنار التمزق والتصدع ، والتشتت والتفرق ، وكلَّفت الأسر والمجتمعات كثيراً من الخسائر الفادحة ، والزيجات المتأرجحة ، فقد أثبت الزواج القائم على المظاهر تصدُّعه وتضعضعه ، وأنه يفتقد كثيراً من الأمن النفسى ، والسعادة الحقيقية ؛ لأنه قائم على الانتفاخ الكاذب ، والانتفاش الخادع ، وقائم على الرواء الذى يسحر العيون ، ويأخذ الأبصار ، فتسعد الأسرة بهذا الزواج السعادة التى سرعان ما تنفثئ عن زبد يذهب جفاء ، ليمكث العنتُ والشقاء ، ويطول الخلاف والشقاق !

والزوج مهما كان فقيراً معدماً أفضل من « العنوسة » وأوضارها . وقد فقهت المرأة القديمة ذلك ، حين نقل لنا الشاعر هذا الحوار الرائع بين « سلمى » وبنات العم :

قالت سُليمى ليت لى بعلاً يمن   يغسل همى وينسينى الحزن
قالت بنات العم يا سلمى وإن   كان فقيراً معدماً قالت : وإنن

أما المجتمع المتحرر فقد هلك ، وحق له أن يَهْلك ، بعد أن خفق قلب الحياة الاجتماعية لديه بأضعف النبضات ، وبلغ شأواً من الحطيطة غير مسبوقة ولا ملحوقة ، منذ أن نادت الحركات النسائية المنتشرة هناوهناك بتحرر المرأة ، واشتطت فى ذلك وجارت ، واعتبرت « جيرمين جرير » صاحبة كتاب « المرأة المخصية » ، وهو الكتاب المقدس لدى المتحررين فى الحركات النسائية ، اعتبرت أن الأمومة قيد، وأن الزواج حاجز . . فانطلقت المرأة العصرية تلهث وراء حرية زائفة ؛ لتحصد ضياعاً ، وليحصد مجتمعها هشيماً تذروه الرياح وأقيمت العلاقات الآثمة ليل نهار ، وقامت الخيانة على قدم وساق ، وتهشمت قواعد الأسر ، وأتى بنيانها من القواعد ، فخرَّ السقف على الناس أجمعين . وكثر فى المجتمع الغربى ما يسمى بأسرة الأمر الواقع ، والتى تعنى الإنجاب خارج إطار الزواج الرسمى ، وأصبح الرجل الغربى متردداً فى الإقدام على الزواج من امرأة تستطيع نقضه بإشارة واحدة، مما جعل بلداً مثل « بريطانيا » يولد نصف أطفالها دون زواج ، والأمثلة فى الشمال الأوروبى أكثر هلعاً ، وأشد وطئاً . فاربدَّ وجهُ أوروبا ، وارتعدت فرائصها، وانهار بناؤها الاجتماعى ، وتناثر قطعاً لا يُمسكها سَبَبٌ ، وتفسخت العلاقات الأسرية ، بل تلاشت ،وتفككت الأواصر والوشائج ، وانتشرت الأمراض الجنسية انتشار النار فى الهشيم ، وعلى رأسها مرض « الإيدز » اللعين ، ومعه بطانته من الفيروسات والجراثيم الأخرى ، التى يقدر المصابون بها بالملايين على وجه هذه البسيطة ، فغدت أجساد البشرية مترعة بالأمراض التى احتار فيها الطب المتعاجب بتقدمه وإنجازاته . وبعد لأى [1] علموا أن الحل البسيط ـ والوحيد كذلك ـ هو البعد عن الممارسات الخاطئة ، والعودة إلى شريعة الزواج ، قبل أن تُسحق البشرية تحت سنابك الأمراض الفيروسية التى لا يعجبها إطلاقاً التقدم الطبى المذهل ، فاعتلت أرضاً لا تطالها معامل التحليل والتفحيص التى لا تهدأ ، وقد تهدأ لو عادت البشرية إلى قانون الزواج ، وإلى عالم الطهر والعفاف .

(1) مشقة .

إن المرأة فى المجتمع المتحرر عند وصولها سن الأربعين تصاب بخلل نفسى هائل ؛ ذلك أن سلطانها يستند أول ما يستند إلى الجمال والنضارة ، ويستند كذلك إلى الإنفلات والإنطلاق . فالكل يركض خلف فتنتها ، والكل يعطيها من الاهتمام الخادع ، والإعجاب الماكر ، ما يجعلها تشعر بكبرياء فارغة ، سرعان ما تنفثئ عند جفاف نضارتها ، وذهاب زينتها ، فترى نفسها ـ وقد انفضّ الضجيج عنها ، وانطفأت الأضواء المسلطة عليها ـ ترى نفسها قد عافها المجتمع ، وهجرها الناس أجمعون ، وانصرفوا إلى شوابّ أخريات ، فتحلم آنئذ بالأمومة ، وقد فرطت فيها زمن العطاء ، وتحلم بالزوج والبيت ، ولكن بعد فوات الأوان . فهل بذلك قد أنصفوا المرأة ، ومنحوها الحقوق والمساواة ؟! لا أعتقد أنهم أعطوها شيئاً إلا السراب والخداع !

وكاتبة أمريكية هى « دانييل كرتندن » قد أدركت ما آلت إليه المرأة العصرية من حيرة وشتات ، فكتبت مقالاً يمتلئ بالعقلانية ، ويتسم بالحكمة ، نقلته صحيفة « الشرق الأوسط » بتاريخ **1999/4/3** ، تدعو فيه بنات جنسها إلى التخلى عن الأفكار الراكدة ، التى جلبتها حرية جوفاء ، وشعارات صلعاء ، وتدعوهن إلى الزواج ، والأمومة ، وحياة العائلة الأولى . . كتبت تقول فى هذا المقال ، الذى نقلنا جلّه : « . . نحن تشربنا أن علينا أن ننسى أو نؤجل الزواج وإنجاب الأطفال لأجل الوظيفة ، وإننا عندما نتزوج يجب ألا نعتمد على أزواجنا مالياً ، سواء أنجبنا أم لا . كما ينبغى ألا نتطلع إطلاقاً تجاه عائلاتنا لتحصيل الرضا والسعادة ؛ لأن هذه الأشياء ينبغى أن نجنيها من وراء أعمالنا ووظائفنا كأفراد !

عندما تأتى واحدة مثلى وتقول بخطأ تلك النصائح والأفكار ، فإن قولها عسير على الهضم ، فالكثيرات منا أقنعن أنفسهن بها ، ورسمن حياتهن وفقاً لها . وحتى عندما نتنحى بعيداً عنها فنحن لا نريد رفضها ألبتة ، ولكن المعضلة أن التخلى عن تلك الأفكار هو أول الطريق لحل المشكلات التى تواجهها النساء اليوم .

وعندما ننظر إلى حياة النساء العصريات من حولنا ، أعتقد أن قليلات منا قادرات على القول بثقة أن التقدم الذى وصلنا إليه عاد علينا بمنافع كبيرة . نعم ،

نحن اليوم أكثر حرية من أى جيل من النساء فى التاريخ كله ، إذ نستطيع شغل مواقع متقدمة في العمل أو الحكومة ، إلا أن ذلك كان على حساب قدرتنا على إدارة حياتنا الخاصة . لقد أنصتُّ إلى العديد من النساء العصريات من ذوات الإنجازات يشتكين ، من دون تهكم ، أنهن لا يملكن الخيارات التى كانت متاحة لأمهاتهن فى الماضى . بعض أولئك النساء خريجات جامعات لا يدرين ببساطة كيف سينجزن كل شيء فى حياتهن ، أو حتى كيفية إنجاز أمر واحد من بين عدة أمور ، مثل العثور على رجل محترم للزواج ، وإنجاب . . أطفال ، وبناء وظيفة ، وفوق ذلك كله التمتع بحياة عائلية غالباً ما افتقد نها خلال طفولتهن . . إن النقطة الأساسية ليست إن كانت المرأة محصورة بين خيارين : إما العلم ، أو الإنجاب ، بل النقطة الأساسية تدور حول مقدرتنا كنساء على إدراك كل آمالنا فى وقت واحد . لتحقيق ذلك يجب أن نبدأ برفض افتراض الحركة النسائية أن السعادة شيء نحققه بشكل مستقل وبعيد عن الرجال والعائلة . نعم ، إن ما أقترحه هو العودة إلى الوراء؛ إلى فكرة الزواج والأمومة الأولى .

سترفض النشطات في الحركة النسائية هذه الفكرة بالطبع ، فهن مصرات على أخذ موقف حيادىَ تجاه الاختلافات البيولوجية بين المرأة والرجل . موقفهن يقوم على أن الطريقة الوحيدة التى تتيح للمرأة تحقيق المساواة مع الرجل ، هى القيام تماماً بذات الأشياء والوظائف والأدوار التى يقوم بها الرجال فى حياتهم . وفى أية لحظة تعترف امرأة ما برغبتها فى أن تكون زوجة ومربية لأطفالها ، فإنهن ينظرن إليها على أنها « دون طموح » !

لكن الحقيقة هى أن تلك الرغبات ملحة بشدة على عدد كبير من النساء . إن العديدات من نساء جيلى خلصن إلى أنه ربما تكون الاستقلالية جميلة ومريحة عندما تكون المرأة عازبة وشابة ، غير أنها ليست كذلك إطلاقاً عندما تكون المرأة أماً بلا زوج ، أو عازبة وهى فى الأربعين من عمرها .

ويبقى أننا إذا أردنا ، كنساء فى الغرب ، تغيير وضعنا ومشاكلنا ، فربما لن يتطلب منا ذلك العودة إلى الوراء ، بل ربما نحتاج فقط النظر إلى الوراء بصدق

ووضوح ، وتحديداً النظر إلى بعض الأفكار التى لفظناها ، مفضلين عليها حرية غالباً ما تكون جوفاء ! » .

لقد انساق الغرب وراء حرية ، لم يدرك كنهها ، ولم يستطع تحديد أبعادها ؛ لأنه لم يكن يحمل فى صدره إلا همّاً واحداً ؛ هو همُّ الماضى ، فاعتبره قيداً يستأهل اللعنة ، وعده شيطاناً مريداً ، فرماه وراء ظهره ، ولم ينظر إلى خيره ألبتة ؛ ومن خير ذلك الماضى الزواج والأمومة والعائلة . . مما حدا به إلى انفلات مروع ، وتفسخ بغيض ، فاختلطت الأوراق لديه ، وتداخلت الرؤى أمام ناظريه ، وتبعثرت المشاعر كما يتبعثر الذر ، فكانت النتائج الاجتماعية مخيفة ، والأمراض النفسية قاتلة ، والأدواء العضوية ـ التى لا علاج لها ـ شبحاً يهدد المجتمعات بالفناء والإبادة .

ولقد أدرك الإصلاحيون منهم خطر ذلك ، فطالبوا بالعودة إلى التقاليد النافعة ، والأعراف الصالحة ، وحذروا من الممارسات الخاطئة ، والحريات المطلقة وأعلنوا شعارات الوقاية والمحافظة والإحصان . . ولكن صوتهم ما زال خافتاً ، ودعوتهم ما فتئت غير مسموعة ، وصرختهم غير مدوية ولا مشفوعة .

ولكن الإسلام كان حكيماً كل الحكمة ، حين جعل الزواج شريعة ، والتحصن واجباً ، وطلب العفاف لازماً من لوازم المجتمع الفاضل ، ولم يدع باباً من أبواب الفتنة إلا سده ؛ فأمر بغض البصر ، وحرم الخلوة بالأجنبية ، وشدد عقوبة الزناة ، ودعا إلى ستر العورات ، وحفظ البيوتات ، وفتح باب الزواج على مصراعيه ، وأباح التعدد ؛ حتى يأمن من حالات الاستثناء التى يقل فيها الرجال ، أو حالات القدرة والإمكان . . فلا يدع بذلك ثغرة تهب منها ريح الفحش والفساد ، وهو فى ذلك محافظ على المرأة ، رافع لشأنها ؛ فجعل لها حقوقاً ، وجعل لها رأياً ، حتى أباح لها الاستئثار بزوجها ؛ فتشترط عليه عند العقد عدم التعدد ، فيكون ذلك لازماً ونافذاً عند الحنابلة وكثير من الصحابة . فأى كمال بعد هذا الكمال ؟! وأية شريعة هذه التى تحيط بالأمر من كل جوانبه ؟! إنها شريعة الحكيم الخبير .

إن الزواج بمثابة الترياق الذى يدرأ عن المجتمع سموم الفاحشة ، وأوضار الرذيلة ، ومعايب العرى والوضيعة . . لذا يجب تسهيله ، والحض على إتمامه وتحقيقه ، والبُعد عن كل تعقيد معيب ، أو تعسير مشين ، والنظر إلى الأمور بكل واقعية ، وبكل يسر ومرونة وإنصاف .

﴿ . . . لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

يقف المرء مشدوهاً مبهوراً وهو يتابع الصور الفياضة ، والمعانى المتلاحقة ، لتلك الكلمات القصار من القرآن ، وهى ترسم العلاقة بين الرجل والمرأة فى أبهى صورها ، وأزهى حللها ، فتضفى عليها سمة التناسق والانسجام ، وتخلع عليها سمت الطهر والقداسة والصفاء ، نافضةً عن كاهل هذه العلاقة غبار التصورات القديمة الهالكة ، صارفةً عنها غَبَش الدعاوى الحديثة الماكرة ، وتعريتها من ردائها الزائف البغيض !

وكلمات القرآن تصور هذه العلاقة طاهرة وضيئة ، لا تدنسها تلك الأبواق الفاغرة ، التى ما انفكت تَضجُّ وتَصْخب ، وتَرفع أصواتها بحقوق مصطنعة ، ومساواة خادعة بين الرجل والمرأة . فلا تألوا جهداً فى تأريث نيران الصراع بينهما ، وما تَنى تَصور المرأة كائناً مظلوماً ، مهيض الجانب ، مقصوص الجناح ، وطىء المكانة . وخالت المرأة ذلك حقاً وصدقاً ، حتى وقعت فى شَركهم ، فاجتالتها الشياطين ، وصارت دمية فى أيديهم ، ولقمة سائغة ، قذفوا بها للذئاب من بنى البشر ، فتكالبوا على تجريدها من كل خلق ودين ، وتعريتها من كل حياء وعفة .

أما الإسلام فقد أعلى من شأن المرأة ؛ فحفظ لها حقوقها ، وصان عفتها وكرامتها ، وجعل البيت لها قراراً ، وتربية النشء عليها واجباً ، على أن يكدح الرجل ويكابد ، ويكد ويجاهد . فلابد أن يكون أحدهما بالداخل ، والآخر هناك، فيتحقق التكافل بينهما ، فى علاقة يسودها الود والتفاهم ، لا تنافس فيها ولا تدابر ، ولا فوقية فيها ولا تعال . علاقة غامرة بالتلاحم والوئام ، طافرة بالمودة والرحمة ، زاخرة بالوفاء والعطاء . علاقة لا انفصام فيها ولا استغناء : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [1]؛ فالمرأة غطاء الرجل ، وهو غطاؤها ، تستره ويسترها ، وتحفظه ويحفظها ، فى حاجة ماسة إلى التستر والعفاف ، وفى مساواة لطيفة ، لا تعنت فيها ولا شقاء ، أرأيت حاجة الجسد العارى إلى اللباس يستره ، كم هى

(1) البقرة : 187 .

ضرورية ملحة ؟! كذلك حاجة أحدهما للآخر ؛ حاجة إلزام وإلحاح . فتصبح الحياة بدون أحدهما عارية ؛ عارية من كل ساتر عفيف ، ومن كل آنس ودود ، ومن كل رحمة مديدة ، ومن كل مودة غامرة . تصبح عارية من معانى الألفة والعطاء ، ومن معانىَ الصدق والوفاء . تصبح عارية كالساق دون أوراق وكالجدول دون ماء !

وكلمات أخرى من القرآن : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (1) ؛ فمن ذات أنفسنا جاءت المرأة ، فهى قطعة من الرجل ، تهفو إليه ، ويهفو إليها ، لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ولا يعيش بدونه .

ثم يعلل سبب خَلقهنَّ من أنفسنا : ﴿ لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، فلم يشأ الخالق سبحانه أن يخلقهن من طينة أخرى ، أو من جنس آخر ، بل هن من ذوات أنفسنا ؛ لنسكن إليهن ، فتحدث الطمأنينة ، وتهدأ العواطف ، وتطيب المشاعر ، فالحياة بدون المرأة لا هناءةَ فيها ولا حبور ؛ بل جامدة كصفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صَلْداً ، لا زرع فيه ولا إتيان .

ثم أرأيت المودة والرحمة ؟! إنها مخلوقة أصلاً بينهما منذ النشأة الأولى : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ ، فالله هو الذى جعل هذه المودة ، وتلك الرحمة ، وهو الذى خلقها وأودعها ، فيجدها الرجل تجاه زوجه ، وتجدها المرأة تجاه زوجها ، دون تكلف أو عناء .

إلا أنهم لم ينظروا إلى المرأة على أنها من ذات الرجل ، وأنها خُلقت ليسكن إليها ، فراحوا يطالبونها بالانفصال والاستقلال فتأخذ أمورها دون أن تلتفت إلى الرجل ، ودون استشارته ، أو الرجوع إليه . طلبوا ذلك من المرأة باسم الحرية ، التى صنعها الغرب على قَدِّ أهدافهم الغائمة ، فكانت صنعةً اختلط فيها السم بالعسل ، والماء بالزبد ، ومع ذلك أقبلت المرأة عليها ، واستساغتها ، وهضمتها ، فلم تَجْنِ من وراء ذلك إلا الموت الزؤام ، والسم الزعاف ، فهى فى انفصالها قد اضطربتَ خطاها ، وتبعثرت مشاعرها واضطرمت أنفاسها ، واصطدمت رُؤاها ،

(1) الروم : 21 .

واختلطت لديها الموارد والمصادر ، كان ذلك بسبب هروبها من ذاتها ، فحاولت أن تنسلخ عن الرجل ، فواجهت الحياة دون غطاء ، ناسيةً المودة والرحمة بينهما ، متناسيةً ذاتها المتداخلة مع الرجل ، وجرت وراء سرابٍ ، يحسبه الظمآن ماءً ، فوجده صحراء قاحلة !

لا يليق بنا أن نشغل المرأة بحقوق ، نحن صانعوها ، وبمساواة ، نحن مبدعوها بل علينا أن ندعوها إلى التعاون والتكافل مع الرجل ؛ من أجل حياة هانئة ، وعيش آمن .

وفى موضع آخر : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾

فلا تجد فى مفردات اللغة على اتساعها ما يعادل أو يقارب هذه الكلمات بلاغة وإعجازاً .

ونقف هنا عند قوله تعالى : ﴿ **لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ ، فيجذبك هدوء اللفظ ، وما يُحدثه صوتُ الحروف من روعة وبهاء ، وسكون وجمال ، كمستخف بالليل وسارب بالنهار ، كأنها تصف السَكون ذاته ، كما يَصف القدُّ حسن القوام ، كأنها تفرغ شحن القلق والحيرة والشتات ، فتضع هذه ـ جميعاً ـ أوزارها ، لحظة السكون إليها ، فينعم بالحياة !

وهو ذاهبٌ إليها ، ذاهبٌ إلى السكينة لديها . . ذهاب فطرة وارتياح ! وهو ذاهب . . يَغيبُ الارتياعُ ، وتتساقط الهموم ، وتَهربُ الحيَرة ، ويتجمع الشتات . . وتخفق الحياة بأقوى النبضات !

﴿ **لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ . . من قلق العيش ، وجفاء العمل ، ومن ضيق الصدر ، وشدة الغيظ ، ومن قسوة السعى ، واختلاط الأمور ، ومن شدة المضايق ، وغلبة الكروب . .

إنه تعبير معجز ، يعجز الأسلوب البشرى عن تحليله وبيانه ، ويعجز كذلك عن متابعته ، وهو يرسم تلك العلاقة الشفيفة بين الرجل والمرأة ، ويبين وظيفة المرأة الأولى بالنسبة للرجل ؛ فهى أصل سكينته ، وقبلة راحته ، ومحور أمنه ، ومنبع

طمأنينته ، وهى الجانب الوضيء فى حياته ، وهى الملاذ الهانئ ، والركن الآمن ، من متاعب الحياة وآلامها . . هكذا خلقها الله ! وهذه هى أسباب خلقتها ووجودها بعد طاعة ربها .

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ . . فدلت على أن لهذه السكينة موضعاً ، ولهذه الطمأنينة مكاناً . . إنه البيت ، مملكة المرأة ، فيه تنشر أرائج المودة ، وتبعث نسائم الرحمة . فيه يغترف الرجل من سكينة زوجه ما شاء ، وينهل من عطائها ما شاء ، ويرتشف من رحيق وُدِّها ما شاء .

إننا فقدنا هذه السكينة فى بيوتنا ، حين تركت المرأة بيتها ، وخرجت منه ، بحاجة وبدون حاجة ، فاهتزت قواعد هذه السكينة ، وقُوِّضت أركانها ، وأصبح الرجل يعود إلى بيته دون سكون إلى أحد ، لأنها - عند خروجها - فى حاجة إلى سكون مماثل .

فمَنْ يُعطى مَنْ ؟! فارتفعت السكينة من البيوت ، ليهطل عليها سيلاً من الشحناء والبغضاء ، قد أغرقها ، وأحالها صعيداً زلقاً !

إن الرجل فى حاجة إلى هذه السكينة من زوجه ، أكثر من حاجته إلى راتبها عند خروجها .

فليس هناك فى هذه الدنيا أجمل من اللحظة التى يعود فيها الرجل من عمله متعباً ، فتستقبله زوجته ، وقد هيأت له أسباب الراحة والسكينة ، فترتاح نفسه ، ويهدأ قلبه .

إن الأسرة كلها فى حاجة ماسة إلى هذه السكينة من المرأة ، فالرجل فى حاجة إليها ، والأبناء كذلك ؛ ليقوى العطاء ، وتزكو فى نفوسنا معانى المودة والرحمة والاطمئنان .

﴿ . . . وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

من المعلوم بالضرورة أن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز التى أودعها الله الناس أجمعين ، ومن جُلِّها [1] شَرَع الزواج ، وجَعل إرواءَ هذه الغريزة شرطاً من شروط وجوده واستَمراره ، ورفع الإنسانَ عن مصاف الحيوانات ، التى تقضى وطرها سائبة غافلة عن الأهداف والغايات ، وأبعده عن دركات الإرتكاس ، وانتشله من حمأة التردى والانتكاس ، فأنعم عليه بأحاسيس فياضة ، ومشاعر جياشة ، وتشوُّف لا ينقطع ، وتطلع لا ينى أو يفتر ، كما زين غريزته تلك بأبوة راعية ، وأمومة حانية ، وذرية هى قرة العيْن . فعلَت مشاعرُ الإنسان ، وتهذبتَ عواطفه . كما ارتبطت هذه الغَريزة بأسمى الغايات على وجه هذه البسيطة ؛ من الإعمار والإكثار ، والذرية والأحفاد ، وحسن العشرة وطيب الجمع ، ومن عراقة الأنساب وتعدد الأصهار .

وقد كان الإسلام واقعياً حقاً ، ومتوازناً كذلك ، حين جعل لقضاء الشهوة فى الحلال أجراً ، ومداعبة الزوج لزوجته ثواباً ، حتى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته . وقد تعجب الصحابة من ذلك ، فقالوا : يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟! قال : «**أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر** » .

وهذه المتعة الزوجية التى نستكثر حصول الثواب عليها ؛ إذ ربطنا الأجر بالشاق من الأعمال ، فقد غاب عنا منافع هذه المتعة الحلال ، وما يترتب عليها من أهداف وغايات ، يتحقق بها الأجر والثواب . وتنحصر منافعها فى خمس ؛ فهى تُشبع غريزة خلقها الله فى الإنسان ابتداءً ، وتُعين على التحصن والعفاف ، وتَدفع الفحش والانحلال ، وتَحفظ الأنساب والأعراق ، وتعمر الأرض بالنسل الطيب الحلال .

إنها واقعية الإسلام التى لا تغفل هذه المنافع الجليلة ، والفوائد العظيمة ،

---

(1) من أجلها .

فتمنح متعة الشهوة ثواباً ، ولقاء الزوج بزوجته أجراً وجزاءً ، فيجمع المسلم بين الحسنيين ، فيعظم فى قلبه إسلامُهُ ، ويكبر فى عينيه شرعُهُ ونظامُهُ .

وقد كان القرآن بليغاً ومعجزاً ، حين كنَّى عن أمر الجماع بكنايات لطيفة ، وألفاظ شفيفة رقيقة ، فقال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (1) . والإفضاء هنا كناية عن الجماع . وفيه من الأدب الرفيع ، والسمت الرقيق ، والصدى الرائق ، ما تتقاصر دونه أقلام البلغاء ، وألسنة الفصحاء . ففى ظل هذه الألفاظ يتراءى لك سَعى أحدهما إلى الآخر ، وهو يبثُّ إلى صاحبه مكنونَ نفسه ، وذاتَ صدره ، وطوية فؤاده ، وخبيئة حسِّه وعطفه ، وقد بلغا من التقارب مبلغاً ، ومن التوحد شأواً ، وصار يُفضى إليها ، وصارت هى الأخرى تُفضى إليه ، فتقاربت المشاعر ، وامتزجت العواطف ، واتحدت الرؤى ، وزالت الفوارق ، ورُفعت الحواجز ، وغاب العنت والحرج ، وابتعد القلق والغضب ، فتعرت القلوب والمشاعر ، وتكشفت المزايا والمحامد ، فكان الإفضاءُ إفضاءَ خير وبركة ، وكان الجماعُ جماعَ حبٍ وغاية ، وكان هذا اللقاء الذى باركته السماءَ ، ومنحته النبوة أجراً وثواباً .

إن اللقاء بين الزوجين لقاء تعدد وتوحد ؛ لا يقتصر على الجسد ، بل فيه تلتقى المشاعر والعواطف والأحاسيس . فيه تلتقى إنسانية الإنسان ، فتُبعده عن شبح البهيمية ، وفيه تلتقى الذات والروح والفؤاد ، وفيه يكون قد أفضى بعضنا إلى بعض ، وعمَّت السكينة ، ورفَّتْ ابتسامةُ الرضا على الوجوه ، ورَفْرفت السعادةُ وضَمَّتْ جناحيها على كثير من معانى الود والرحمة والأمان .

ولو بثَّ كل زوج إلى صاحبه كل مشاعره ، وتحرر من إسار الكبرياء الفارغة ، والأفكار الراكدة ، وجعل كل منهما صاحبه امتداداً لذاته ، واكتمالاً لوجوده ، لسعد الزوجان وفازا . ولكنه الانتفاخ الكاذب ـ أحياناً ـ يباعد بينهما فى أمور كثيرة ، ولكنها الذات المنتفشة ـ من قبل الزوج غالباً ـ تصطدم مع صاحبها ، فتبعد عنه بُعْدَ المشرقين ، ويلتقيان جسَداً دون روح ، فيكثر الملل ، ويزداد السأم ،

(1) النساء : 21 .

ويسيران في اتجاهين متضادين ، إلى حفرة قد صنعها التملقُ والنفاق ، ووسّعها الكبر والعناد!

ومـا زال القرآن العظيم في كناياته اللطيفة ؛ فيعبر عن الجماع ـ هذه المرة ـ بالمباشرة : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (1). وفى قوله ﴿ بَاشِرُوهُنَّ﴾ من اللطف والشفافية والرواء والتتابع ما يُضفى على اللقاء الزوجى مستوىً فارعاً من الإنسانية الراقية ، وأوجاً رفيعاً من الذوق والسمو والنضج السامق . فهو يباشر زوجه عند اللقاء ، ويرعى مشاعرها وأحاسيسها ، ويرقب لحظات الرضا ، ويلحظ آونة التجاوب والقبول . يفعل ذلك لأنه يؤمن بإنسانية المرأة ، ويرى فيها كائناً قد كرمه الإسلام الإكرام كله ، فخاطب فيها الذات ، وناظر فيها الروح والفؤاد ، ولم يغفل أهميتها فى هذه الحياة .

ومن الكنايات اللطيفة أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا ﴾ (2) والتغشى هنا تعبير عن الجماع ، وهو من التعبيرات القوية ، التى توحى بالتقارب الشديد ، والتلامس اللطيف ، وفى ظلها إيحاءات شتى تناسب ذكر الحمل بعدها .

ثم نأتى إلى الكتب التى تناولت أمور الجماع ، فنراها قد اشتطت وغالت ، حين جعلت منه علماً معقداً ، يجب على المرء دراسة مداخله ومخارجه . وكأنهم ـ فى ذلك ـ قد حذوا حذو أهل الغرب ؛ إذ اعتبروه مادة ثقافية ، ترمز إلى التحرر والتحضر ، وتُعطى للدارسين والدارسات ، ولكن النتائج كانت أسيفة أليمة ، واقتات مجتمعهم بؤسها وأوضارها ، وأصيب الناس ـ هناك ـ بتبجح هالك ، وتوقح مميت ، وتكشف ما ينبو عنه الذوق ، وما يندى منه الجبين ، وارتفعت عنهم صفة الحياء ، وتمرغوا فى وحل النزوات الماجنة ، والممارسات الشاذة ، وعادوا فى ذلك إلى البهيمية ، وانتسبوا إلى قوم لوط .

والأمر ليس فى حاجة إلى كتب أو دراسة ؛ لأنه أمر فطرة ، ولقاء طبع ، وجماع غريزةٍ . . يحتاج إلى حب خالص ، ورضا شامل ، و روحٍ تهفو إلى روح ،

---

(1) البقرة : 187 .
(2) الأعراف : 189 .

ومشاعر تخاطب مشاعر . . فإن كان ذلك كذلك تحقق بين الزوجين ـ حتى ولو كانا أميين ـ من التفاهم والتجاوب والإنسجام ما لا نجده عند مَن يدّعون بُصْراً بهذا الجانب ، وفقهاً فيه .

وكأن الرسول ـ ﷺ ـ أراد أن يرشد الناس إلى أمر ، إنْ تحقق عَنَتْ لسلطانه أمور الجماع كلها . إنه أمر المداعبة قبل الجماع . فلم يعده َلهواً ، بل هو عنده من الحق . فقد روى أحمد وأصحاب السنن أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « **كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً : رمية عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق** » .

ذلك أن مقدمات الجماع ترمز إلى ذوق رفيع ، وإلى حس مرهف ، وترمز كذلك إلى احترامنا لذات المرأة دون إهانة ، وإلى تقديرنا لمشاعرها دون تجريح . فلابد أن تشعر المرأة أنها تُطلب من أجل ذاتها وروحها . وحين تشعر بذلك تمنح زوجها حياةً لا يقدر على وصفها امرؤ القيس أو ابن أبى ربيعة ، وتهبه كذلك حباً لم يعرفه مجنون ليلى !

ولكن الخطأ أن نشعرها أنها جسد يُوطأ ، وشهوة تُقضى ، وهذا يؤذيها أشد الأذى ، ويتنافى مع تكريم الله لها .

إن العلاقة بين الزوج وزوجته لا يمكن أن تقوم على نظرية الجسد أو المظهر ؛ لأنها لو قامت على ذلك لتضعضعت [1] بين عشية وضحاها . ذلك أن الجسد لا يتجدد ، وخاصة عند تملكه ، ولكن الذى يتجدد هو إيحاءات الروح ، ونبضات الذات ، وعطاءات القلب . فالمرأة صاحبة الروح الآسرة ، والذات السامية ، تملك على الزوج فؤاده ، وتنال إعجابه ، دون فتور أو سآمة . وأنّى للجسد أن يهب ـ ولو كان فاتناً ـ وأنى للصورة أن تمنح ـ ولو كانت رائقة ـ وأنى للمظهر أن يتعالى . . حين تصفر من يده معانى الصفاء و الشفافية ؟!

قد يروعك منظر فتاة جميلة ، فتأخذ لبك ، وتملك بصرك ، ولكن هذا الانبهار سرعان ما يتلاشى ، حين يقترن المرء بها ؛ ذلك أن إعجابه قام على شيء ذى صلة بالعين والمظهر ، ولم يلتفت إلى صلة القلب ، وتآلف الروح .

(1) هُدمت .

فالصورة فى كنهها لا قيمة لها ، ولا تجدد لعطائها . نراها صباح مساء ، فيفتر إعجابنا رويداً رويداً ، فيصاب القلب بفاجعة الملال . ذلك أن الذى يُضفى على الصورة جمالاً هو ارتياح الفؤاد ، ولا تستحوذ الصورة الفاتنة الخاوية إلا على العين وقتاً قليلاً ، وزمناً يسيراً !

كثير من الشباب أعجبتهم الصورة الفاتنة ، دون أن يجشموا أنفسهم عناء البحث عن الدين والأخلاق ، واستفرغوا كل جهدهم فى الحصول على محبوبتهم، وظنوا فى الزواج بها السعادة كلها ، فلما اقترنوا واجتمعوا تفرقت القلوب ، ونفرت الأفئدة ، ورزحوا تحت وطأة التشاحن والتدابر ، وعلموا أن لهثهم كان وراء سراب يحسبه الظمآن ماءً ، فوجده صورةً دون روح !

إننا نظلم المرأة كثيراً حين ننظر إليها على أنها جسد وحسب ، فهى تحتاج منا إلى اهتمام بذاتها وفكرها ومشاعرها ، وحين نهتم بذلك منحتنا عطاءات لا ينضب معينها ، ولا يفنى جديدُها ، ولا تخلق [1] على مرور الأيام ، أو تقلبات الزمان .

إن المرأة تملك من العواطف والمشاعر والأحاسيس ما لا يمكن حصره أو حده ، ولو خاطبنا فيها هذا العالم لكنا موفقين كل التوفيق فى حياتنا الزوجية .

وليس صحيحاً أننا نستطيع أن نخطب ود المرأة ، أو نحصل على رضاها عن طريق المال والجاه . ذلك أن لقاء الزوج بزوجته تحكمه معايير أخرى من التآلف والانسجام . قد يفتن المالُ المرأةَ ، ولكنه لا يفتن قلبها . ولو كان المال يصنع سعادة زوجية لقفرت [2] بيوتُ الفقراء منها . ولكن نصيبها من السعادة أوفر من بيوت الأثرياء فى كثير من الأحيان .

وقد صورت « ميسون الكلابية » ذلك ، بعد أن تزوجت معاوية ، وانتقلت من حياة البداوة إلى حياة القصور ، فلم تجد الهناءة هناك ، بل هى فى خيمة البدو ، ولبس العباءة ، وأن قريباً من أقاربها ـ ولو كان وضيعاً ـ أحب عندها من معاوية وجاهه . . استمع إليها ، وهى تنشد هذه الأبيات الرائعة :

---

(1) لا تبلى .
(2) أى خلت .

لبيتٌ تَخفــقُ الأرواحُ فيـــه — أحبُّ إليَّ من قصــرٍ منيــفِ
وكلــبٌ ينبح الطــرَّاق عَنّي — أحبُّ إليَّ مــن قـط أليــفِ
ولبْــس عباءةٍ وتقرَّ عينـــي — أحبُّ إليَّ من لبسِ الشفوفِ
وأكل كســيرةٍ في كسرِ بيتي — أحبُّ إليَّ من أكلِ الرغيــفِ
وأصواتُ الريــاح بكـــل فجٍ — أحبُّ إليَّ من نقرِ الدفــوفِ
وخرقٌ منْ بنــي عمــي نَحيفٌ — أحبُّ إليَّ من علــجٍ علـيفِ
خشونةُ عيشتي في البدوِ أشهى — إلى نفسي من العيشِ الطريفِ

وفقهت « ميسون » ما لم يفقهْه الشاعر القديم حين قال :

فإنْ تَسألوني بالنســـاءِ فإنني — بصــيرٌ بأدواءِ النســاءِ طبيبُ
إذا شَابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالهُ — فليــسَ لهُ مــن ودهنَّ نصيبُ

وحين نربط ود المرأة بالمال نكون ظالمين لها . فالمرأة ـ وخصوصاً الزوجة ـ لها فكر وقلب ومشاعر ، وهي تهب ودها لمن يراعي هذه الجوانب فيها ، فهي ليست غافلة مسوقة ، ولكنها ذاتٌ خلقها الله وأكرمها .

وإذا أردنا أن يكون الإفضاء هنيئاً ، والمباشرة صحيحة ، يجب أن نتخلى عن حسابات المال والجاه ، ونتخلى كذلك عن تضخم الذات ، وورم الفؤاد ، ويجب أن تتخلى المرأة كذلك عن حسابات المظهر والجمال قليلاً ، وتهتم بعطاءات الروح والأخلاق .

إن اللقاء بين الزوج وزوجه هو لقاء روح قبل أن يكون لقاء جسد ، وهو لقاء تحكمه مشاعر لا يمكن توصيفها في نظريات علمية أو كتب ثقافية ، وتحكمه كذلك معاني الحب والتفاهم والعطاء ، دون أدنى اعتبار للمعاني الأخرى .

﴿ ... حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ .. ﴾

يتراءى لك من خلال الصفات التى أضفاها القرآن على الصالحات من النساء عظم البيان ، وجلال التوصيف ، وروعة الاختيار . كما يتراءى لك وضاءة الحياة الزوجية ، والمضى بها قدماً نحو السعادة الحقيقية ، والرقى بها نحو أفق السماء . . هناك تخف ثقلة الطين ، وتعلو نفخة الروح - رويداً - إلى الملأ الأعلى ، فتتخذ مقاعد للسموّ ، لا شهاب صوبها ولا رجوم ، بل أمن وسكينة ورضوان .

إنها مدحة عظيمة : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [1]، نتلمس منها جناحى السعادة الزوجية : القنوت وحفظ الغيب . . قد نبعا من الصالحات من النساء دون غيرهن ، وقد ضُمَّا على الاطمئنان كله ؛ فالـ ﴿قَانِتَاتٌ﴾ صفة يرغبها الزوج وهو حاضر ، و﴿ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ صفة يطلبها وهو غائب . . وبهما تهنأ حياة الأزواج ، وتنعم الأسر والمجتمعات .

وأصل القنوت دوام الطاعة ، بيد أنه طاعة خاصة ، يوحى بذلك ظل الكلمة ، وإيحاؤها المبدع ، وسمتها الرائق الأخاذ !

فالمرأة الطائعة دون قنوت . . تُعيرك استجابةً دون روح ، وانقياداً دون قناعة ، وتسليماً دون إدراك . . فقد تطيع لغاية تبغاها ، أو لهدف تريد الوصول إليه ، أو لمطلب تُمهد للحصول عليه .

أما المرأة القانتة ، فهى تطيع حباً للطاعة ذاتها ، وتقرباً إلى بعلها ، وتودداً إلى من يقاسمها الحياة ، ورغبةً فى إقامة الأسرة الفاضلة ، وقبل هذا طاعة الله ورضاه .

القانتة تمنحك حسن السمع ، وطيب الإصغاء ، وصدق المشاعر ، وصفاء السريرة ، ولطف العشرة ، ولين الجانب . . كما تَهبك نقاء الود ، وعذب الكلام ، مع تواضع حبيب ، وهدوء أليف .

لا تراها عَصِيَّة أو متبطرة ، ولا تراها غافلة أو نسيّة . لا تعرف النشوز

---
(1)النساء : 34.

والعصيان ، أو المحال والخصام . . بل حامدة شاكرة ، صابرة محتسبة . ترفأ أسباب الود إنْ تَقَطعت ، وتطوى بساط الوحشة إن تَمتَّد أو اتسع . لا تُكفر العشير ، ولا تنسى المعروف أو الجميل . ووقتئذ تكون عند زوجها ملء السمع والبصر ـ فالطيبون للطيبات ـ فيعرف قدرها ، ويَزيد من مكانتها . فهى فى هذا الزمان نادرة النوادر ، وقليلة القلائل !

أرأيت الفرق بين القانتات والطائعات ؟! ثم تبينَ لك إبداعُ القرآن ، وأنه معجز فى لفظه ، كما هو معجز فى وصفه وشرعه . كم كان عظيماً ، وهو يَخلع على الصالحات من النساء صفة ﴿ القانتات ﴾ ! لتتنسم الأسر حياة السكينة والطمأنينة ، وتستشرف آفاق الصفاء والإخلاص ، بعيداً عن مصطرع الأزواج واستدامة الأزمات ، وبعيداً عن جفاف الود فى البيوت ، ونضوب الصدق بين أفرادها .

إن المجتمع فى حاجة إلى هذه المرأة القانتة ، بعد أن اتخذت المرأة جانباً دون الرجل ، لاهثةً وراء حقوق خادعة ، ومساواة زائفة ، فتلقت أمشاجاً من الفكر المستعار ، فأصابها الدوار والشتات ، ولم تعد تَذبُّ عن حياض زوجها وأسرتها ، بل هى مشغولة بالذود عن ذاتها وشخصيتها . تبذل ما فى طوقها لإثبات هويتها ، كأنها تشعر بالنقص ، وعدم الثقة فى وضعها ومكانتها . ذلك أنه قد عزب عن فطنتها معانى المودة والرحمة التى جعلها الله بين الأزواج ، وذهب عنها روح التعاون والتكافل بينها وبين الرجل ، فمضت إلى المستنقع الآسن ، واستمرأت المكث فيه !

إن المرأة القانتة تتلمس مواطن رضا زوجها ، وتطلب راحتها فى خدمته ؛ لأنها تراه امتداداً لها . فهما كالجسد الواحد ، والقلب الواحد . لا ترى صفاته دون صفاتها ، ولا رضاه دون رضاها . . تدرك ذلك صدقاً ويقيناً .

إن أهم صفتين للزوجة القانتة الإتقان والزيادة ، فهى تتقن كل شىء ينوط بها ، وتُخلص العمل أيّاما كان صعباً وشاقاً . وهى كذلك تزيد من حبها لزوجها ، وتديم

(1)النساء : 21.

على ذلك الحب ؛ وتزيد من ودها ورعايتها لأولادها وأسرتها . فلا تدع سبيلاً فيه خير إلا سلكت ، ولا ثغرة قد تهب منها ريح الجفاء إلا سَدَّتْ ، ولا عيباً فى زوجها إلا سترت ، ولا مَزِيَّة إلا مدحت وسعدت .

إن المرأة القانتة كلها تجرد وإخلاص ، وكلها ود ووفاء . ولم أر شعراً عبَّر عن هذه المعانى مثل ما أنشدت هذه المرأة لزوجها حين قالت :

قُصَارُكَ منى النصحُ ما دمتُ حَيَّةً ... وودُ كماءِ المزنِ غيرمُشُوبِ

وآخرُ شيءٍ أنتَ لى عند مَرقَـدى ... وأولُ شيءَ أنت عند هبوبى

ولا يقدح قنوت الزوجة لزوجها فى كرامتها ؛ لأنها حين تقنت تقنت لذاتها ، فهى وزوجها ذات واحدة : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ (1) ، ولباس واحد : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ (2) . ويجب أن يزيد قنوت الزوجة من مكانتها لدى الرجل ، ويُعلى من شأنها ، ولا يُهين القانتة إلا من به خبل أو لوثة جنون ، أو به عوج فى السمع والبصر والفؤاد !

وقنوت الزوجة لا يعبر عن غفلتها ورداءة فكرها ، بل يعبر عن رجاحة عقلها ، وقوة بصيرتها ؛ لأنها بقنوتها وطاعتها الخالصة الوفية تُسهم فى بناء الأسرة الناجحة الآمنة ، وتسهم كذلك فى إخراج أجيال عايشت العطاء والوفاء ، وتشربت الهدوء النفسى ، والاتزان العاطفى ، بعد أن أعطت لهم الأم مثلاً فى التضحية والتلاحم ، بعيداً عن الأثرة ، والتعالى ، وحب الذات .

ومن رجاحة عقلها أنها تطيع لتحقيق غايات كبرى ؛ منها الأسرة الفاضلة ، والأجيال الصالحة ، ولو على حساب رغائب ذاتية ، تضر أكثر مما تنفع ، ويكفيها آنئذ أن تلقى الاحترام والتبجيل من قبل زوجها وأولادها ، فيحرصون على رضاها ، وتلمُّس مواطن عزها وكرامتها .

---

(1) الروم : 21 .
(2) البقرة : 187 .

ومن نفاذ بصيرتها أنها تميز بين الغضب والرضا ، وبين المعايب والمحامد ، وتفرق بين موقف وموقف ، وبين مناسبة وأخرى ، تتبصَّر مواطن النفع والصلاح ، وتدرأ عن الأسرة معاول النقض والجفاء ، وترجو بذلك رضا الله سبحانه .

المرأة غير القانتة تضر كثيراً بأسرتها ؛ لأنها أداة للتصادم ، وآلة للتشاحن والتدابر ، قد انصرفت إلى نفسها وذاتها ، وانصرفت عن إسهامها وعطائها . إنها تعالت وانتفخت ؛ لأنها فارغة :

مَلأى السنابلُ تنحنى برؤوسـها والفارغات رؤوسهنَّ شوامخ

ثم يمدح الله الصالحات القانتات بأنهن حافظات للغيب ، أى يحفظن أنفسهن عن الفاحشة ، وأموال أزواجهن عن التبذير والإسراف ، ويحفظن ما بينهن وبين ازواجهن من أسرار وخصوصيات .

لقد كان القرآن مبدعاً أيما إبداع ، حين سَمَّى ما بين الزوج وزوجه من خصائص وحرمات غيباً ، ليُضفى على الحياة الزوجية مسحة من القداسة ، ويسبغ عليها لوناً من الصون والمهابة . فتصبح الأسرة وتمسى ، وهى آمنة على أسرارها ، حافظة لأعراضها ، حَرِيَّة بالاحترام والتقدير والإجلال ، جديرة بالهناءة والفلاح والسداد .

إن كلمة « غيب » والتى تعنى هنا النفس والمال والأسرار ، توحى بقداسة العلاقة الزوجية ، ولزوم هيبتها ، ووجوب صونها وحمايتها . وتوحى - كذلك - بعظيم حرمتها ، وشناعة التفريط فى خصوصيتها ، وبشاعة انتهاك أسوارها ، أو التقرب من حماها .

إنه «غيب » يختص به الزوج وزوجه ، ليس هناك وقت لنشره وبثّه ، وليس هناك زمن لهتكه وفضّه . بل هو « غيب » يرتاد حجباً بعدها حجب ، وأستاراً من بعدها أستار . . تواريه ظلمات الليل الدامس ، لا يتنفس إذا الصبح تنفس ، ولا يتجلى إذا النهار تجلى . . حتى لو اختلف الزوجان وانفصلا . . فمن الوفاء ، ومن الأمانة كذلك . . أن يظل غيباً إلى الأبد .

لذا كان إفشاء ما يجرى بين الزوجين عند الجماع محرماً ففى الحديث الذى رواه

أحمد وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - صلّى ، فلما سلّم ، أقبل عليهم بوجهه فقال : « **مجالسكم . هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وأرخى ستره ، ثم يخرج فيحدِّث ، فيقول : فعلت بأهلى كذا ، وفعلت بأهلى كذا ؟! فسكتوا** ، فأقبل على النساء ، فقال : « **هل منكن من تحدث** ؟ فجثت فتاة كعَاب على إحدى ركبتيها ، وتطاولت ليراها الرسول - ﷺ - ، وليسمع كلامها . فَقالت : إى والله . إنهم يتحدثون ، وإنهن ليتحدثن . فقال : **هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة ، لقى أحدهما صاحبه بالسِّكة ، فقضى حاجته منها والناس ينظرون إليه** » .

نعم . . إنهم يتحدثون ، وإنهن ليتحدثن . . فكان التشبيه اللائق لهذا الفعل الشائن ، أنه مثل شيطان وشيطانه ؛ لأنه فعل لا يليق وذوق المسلم ، ولا يتفق وحسه المرهف ، ولا يتمشى والتحضر الراقى . بل هو توقح وتبجح ، يقوم به أهل القلوب المريضة ، والعقول الفارغة ، الذين يميلون إلى الظرف المائع ، والتفكه السخيف !

وقد أورد الشوكانى فى « نيل الأوطار » وجه التحريم فى إفشاء أحد الزوجين لما يقع بينهما من أمور الجماع قيل وهذا التحريم إنما هو فى نشر أمور الاستمتاع ، ووصف التفاصيل الراجعة إلى الجماع . . وأما مجرد ذكر نفس الجماع ، فإن لم يكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه ؛ لأنه خلاف المروءة زمن التكلم بما لا يعنى ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » .

ولما كان الزوج كثير الغياب عن بيته ، كثير الأسفار ، جعل القرآن حفظ هذا الغيب من خصوصيات الزوجة ؛ لأنها تستطيع - إن أرادت - أن تعبث بهذا الغيب ، فتمارس الفاحشة ، أو تسرف فى المال ، أو تهتك حجب الأسرار دون علم أحد .

كم من زوجة لم تحفظ غيب زوجها ، فاتخذت الخدن والصديق ، واستمرأت الفاحشة على أسِرَّة الغائبين . فتكثر الخيانة ، وتختلط الأنساب ، وتتفكك الأسر والمجتمعات .

كم من زوج عاد من عمله على غير أوان ، فرأى الهول الهائل ، وشاهد ما

تشخص منه الأبصار ، وتبلغ منه القلوب الحناجر . . نقرأ ذلك فى وسائل الإعلام صباح مساء ، وما خفى كثير ، لا يعلمه إلا الله .

وحفظ الغيب ـ فى هذا العصر ـ يكون داخل البيوت وخارجها ؛ فالمرأة العاملة التى تركن إلى زملائها من الرجال ـ فى عصر الاختلاط ـ فتكثر معهم الحديث، وتوزع عليهم الابتسامات ، وتمنحهم قدراً من الاهتمام والإعجاب . . هذه الزوجة غير حافظة للغيب !

بل إننى أذهب أبعد من ذلك فأقول : إن المرأة المتزوجة المتبرجة ، التى تُطلع الرجال على بعض مفاتنها ، فتستميل قلوبهم ونظراتهم ، وتبث الشكوك والشبهات ، وتعين على القيل والقال . . هذه الزوجة عابثة بالغيب ؛ لأن تبرجها وإظهار مفاتنها وزينتها يجب صرفه إلى زوجها دون غيره ، فهو غيب كذلك !

والزوجة التى تجلس إلى أمها ، فتتجاذب معها أطراف الحديث ، وتتسرح معها فى أودية المستور ، وترتاد معها أفق الغيب والأسرار . . فتُضاف إلى الكلمة كلمات، وإلى الوصف أوصاف ، ويتبع التحليلُ التحليلَ . والأم جذلة [1] بإخلاص ابنتها ، منتشية بولائها الكبير ، وانتمائها العظيم ، ثم تُعلن الآراء والأحكام ، التى تجنح إلى الأنانية وحب الذات ، دون اعتبار لمصلحة الزوج أو الأسرة ، فتخرج الزوجة من هذا المؤتمر بتصورات خاطئة ، وأفكار مشوهة ، تتعطل بها مسيرة الزواج الناجح ، وتتوقف بها مسيرة العطاء والبناء ، والأم بذلك قد انتهكت الغيب ، وأغوت ابنتها على العبث به ، بدلاً من حفظه وصونه .

وقس على ذلك جلسات الأخوات والجارات والصديقات ، وما يكشف فيها من أسرار ، وما تُقَصُّ فيها من حكايات وتخيلات ، فتصبح البيوت وتمسى ، وأسرارها على ألسنة العامة ، يعرفون عنها أكثر مما يعرفه ساكنوها ، فتلطخ حرمات البيوت ، ويُرفع عنها الأمن والسكينة ، ويرخى الشك سدوله على كل بيت ، ويتآزر على المجتمع عوامل الهدم والتصدع ، يسير على قرعات طبول التوجس والترقب والقلق ، فما انفكت أعراض الناس وأسرارهم تلوكها الألسنة فى كل محفل وناد !

---

(1) فرحة .

أرأيت أهمية أن تحفظ المرأة الغيب ، وأن تصون الحرمات ، وأن تمسك لسانها ؟

فلا تكشف سراً ، ولا تهتك غيباً ،ولو إلى أقرب الناس إليها ، إلا فى حالات الضرورة ، التى بها تقام الحقوق ،وتستبين الأمور .

إنها مسؤولية ضخمة وعريضة ، تتجشم الزوجة الصالحة أعباءَها ، وتضطلع بأمانتها ، ليزيد ذلك من مكانتها ، وعظم دورها ، ووجوب التماس صلاحها وقنوتها ، وحتمية الالتفات إلى احترامها ، والعلو من شأنها .

ومن تمحيص القول أن هناك من الرجال من لا يحفظ هذا الغيب ، فتراه عابثاً لاهياً ، كاشفاً للسر ، هاتكاً للعرض ، قد فرَّط فيما نيط به من حقوق وواجبات . . ولكن تظل المرأة هى عصب هذا الأمر ، وجوهرهَ ولبه ، فهى كالنغمة التى يُضبط بها إيقاع اللحن فى كل المجتمعات ، فإن استباحت المحرمات ، وعبثت بالأعراض ، تمرَّغَ المجتمع معها فى وحل الموبقات ، وعفن السيئات ، وإن عَضَّت على غيبها بالنواجذ ، ما وجد العاصون إلى الرذيلة سبيلاً ، وما وقع الخَطَّاؤون فى لجَّة الفتن والآثام ؛ لذا كان البدء بها عند توقيع العقوبات : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . . ﴾ [1] .

ومن النساء من يحفظن أنفسهن عن الفاحشة ،ويحفظن أموال أزواجهن عن التبذير والإسراف ، ولكن قَلَّ منهن مَن يحفظن أسرار بيوتهن ؛ ذلك أن من طبيعة المرأة حب الكلام ، وعشق البيان ، والولع بالتفصيل والتحليل . فهذه هى بضاعتها الرائجة ، تستمرؤها ليل نهار ، لا يعزب عن فطنتها أن الحديث ذو شجون ، فلا يستقر لديها خبيئةُ نفس ، ولا تطوى صدرها على سر . فهى تتعشق محادثة الأخريات، دون اعتبار لقيمةّ الأوقات ، فذلك مغداها ومراحها ، ومأكلها ومشربها !

وهى كذلك سريعة الصحبة ، قريبة التآلف . فمن لقاء عابر ، أو حديث شارد، يصير البعيد قريباً ، والعدو صديقاً ، فتتعدد الزيارات ، وتكثر الصداقات ، وتُكشف الأسرار ، وتخرج من الأفواه مكنونُ النفوس ،وذوات الصدور ،وطوايا القلوب ، وهذا ـ لعمرى ـ فساد أى فساد !

وليس كلهن كذلك ، فمن النساء من يضربن المثل فى قلة الحديث ، وحفظ السر ، وصون المستور ، ولكنهن قليل !

---

(1) النور : 2.

﴿.. الْمُحْصَنَات الْغَافِلات الْمُؤْمِنَات..﴾[1]

وجديد القرآن هنا خلع هذه الصفة الندية على المؤمنات. وهى صفة رائقة كماء غير آسن، وناعسة كالليل إذا سجى، تمنحك شيئاً من الطهر والعفاف، وشيئاً من التبجيل والإجلال. إنها روعة القرآن حين يصف، وبهاؤه حين يرقى بنا إلى مدارج التنزيه والصفاء.

وصفة «الغفلة» حين يسبغها القرآن على المحصنات، لا يقع ظلها على الغفلة المعهودة؛ وهى غفلة العقل والفكر، بل يقع ظلها على براءة قد غفلت عن الفحش، وعلى عفة قد غفلت عن لهو النساء ومكرهن. إنها صفة نادرة جد نادرة فى الفتيات، وساميةً كذلك سمو الثريا فى السماء.

فالفتاة تراها غافلة عن اللهو، ساهية عن اللغو، لا يجرى على خاطرها، ولا يَسْرى إذا الليل يَسْر.. تنم عيناها عن براءة عفيفة، ومشيتها دليل على غفلتها، وكلماتها من القصد واضحة، ومن المراد بينة ناصعة، لا تلف ولا تدور، ولا تتلعثم ولا تتمحل، ولا تمكر ولا تخدع، وليس لها من كيد النساء نصيب.. قد أخذت من الماء سلاسته، ونالت من الشمس شروقها وطهرها. فهى كالقمر الحالم الساهى.. الغافل عن نجوم السماء.

أما ترى هذه الفتاة التى تخشى مكرَ عينيها، وتفزع من لهوها، وتخاف من كيدها.. تتلون تلون الحرباء، وتتلوى كالثعبان، وتمط فى الكلام دون إفهام، وتتملق أحياناً وتتمسكن أحياناً.. تداهن وتحاور، وتجادل وتمارى، تدس أنفها فى الأشياء كلها، وتتعالى دون حياء.. إنها ليست غافلة.. بل غافلة عن شىء واحد؛ هو دينها وخلقها.

إن الرجل لا يعجبه تلك الفتاة زائغة العينين، توصم بالإقدام والإقحام، وتتسم بالغلظة والقسوة، توزع أحكامها على كل من تقابله، وتدعى بُصراً بالحياة كلها،

---

(1) الآية بتمامها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة النور آية 23.

وتجيد تخْطيء الآخرين دون تورع، وتبث نصائحها على كل غاد ورائح، وتتعاجب بعلمها وخَبرتها، وتزهو ببصيرتها ورجاحة عقلها.

لا يعجبه تلك الفتاة التى لا تمرر خبراً دون توقف، ولا تترك الحدث دون معرفة بدايته ونهايته.. ثم تتولى هى الحكم والقضاء. لا يفلت أحد من لسانها، ولا ينجو أحد من جَلْدها وسلخها.. هى من الرجال أقرب، وللغلظة صاحب وقرين.

ولكنه يعجبه تلك الحيية، قاصرة الطرف، غافلة عن القيل والقال، ساهية عن صراع الناس. ملء عقلها الصفاء، وفيض قلبها الطهر والعفاف. قد يتحدث الناس عن حالها، وقد يخوضون، ولكنها لا تشاركهم هذا العبث، ولا تلهو مع اللاهين.

قد غفلت عائشة، والناس فى شأنها خائضون، وكانت بريئة طاهرة، شريفة عفيفة، من أصل مبارك كريم، فتولى الله أمرها، ورفع شأنها، فقد كانت من المحصنات الغافلات المؤمنات.

﴿.. فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ..﴾

يقع على كاهل المرأة العصرية كثير من العنت والشقاء، وتحاول أن تدرأ عنها ضر الدعوات الهجينة، فلا تستطيع أو تقدر؛ لتعدد طعانها، وطيش سهامها، فصارت مهيضة الجناح، قد أرخى الظلم عليها سدوله، وأغطش الليل عليها ظلامه، فلم تعد تفرق بين نور وظلمة، أو وَهدة [1] وأكمَة [2].

ومن الظلم الواقع على المرأة فى هذا العصر غياب «التعدد» فى كثير من المجتمعات، وهنا يبدو الأمر مستغرباً، وغير متوازن، ولكنه يستقيم على الجادّة إن رفعنا عن بصائرنا غبش التقاليد الغامضة، والأعراف المتسلطة، وإن خلصنا كذلك من النظرة الذاتية، التى تجنح إلى الأثرة والأنانية.

تتصور المرأة أن التعدد إجحاف فى حق ذاتها، وحطّ من شخصيتها، وإلغاء لاستقلاليتها، وأنه يسلبها كثيراً من الاحترام والتملك. وهذا تصور صحيح من زاوية المرأة الفرد، ولكنه - فى ذات الوقت - تصور يُلقى بعدوانه الصارخ على جنس المرأة عموماً؛ حين تفتش بعض النساء - اللائى حُرِمنَ الزوج، أو فقدْنَه - عن زوج آخر فلا يجدْنَ!

والإسلام حين يُشرع، وحين يبيح أمراً.. ينظر إلى مصلحة العموم، ويقدّمها على مصلحة الذات؛ جلباً للمنافع العامة، ودرءاً للمفاسد الهالكة.. وهو فى هذه الحالة يتفق والمنطق السليم، والعقل الحكيم.

ومن تمحيص القول نقول: إن هناك سبع حالات تستدعى «التعدد» لا محالة؛ وهى حالات المطلقة والأرملة والعانس والعقيم، أضف إليها حالات خاصة بطبيعة الرجل، وظرف الحرب، وسنن الله فى الكون.

والمطلقة والأرملة أقل الحالات وطئاً، وأدناها تعقيداً؛ ذلك أن هناك من الرجال من يكون مطلقاً أو فاقداً لزوجه، ومع ذلك نرى كثيراً من المطلقات

(1) المكان المنخفض.
(2) المكان المرتفع.

والأرامل محتبسات فى بيوت أقاربهن، يتجرعْنَ مرارة التطفل، وذل العيش، وسقوط الكرامة، فغالباً ما يكون الأب - فى كثير من هذه الحالات - متوفًّى، فيزحمون أُسر الإخوة والأقارب على كره وإعراض.. حتى لو وجدنَ المسكن والمأوى، فإنهن يعانين الوحدة والوحشة، وخصوصاً بعد انصراف الكل إلى شؤونه الزوجية الخاصة.

ولكن العانس أشد وطئاً؛ لأن عامل السن بالنسبة للمرأة هو نبض قلبها، وشريان حياتها.. وقد ترجع العنوسة إلى كثرة الفتيات، أو عيب فى المرأة ذاتها، أو قلة حظ فى بعض الأحيان.

وهنا تواجه هذه الطوائف الثلاثة شبح البوار والحرمان، ويتمنين لو يعشنَ مع زوجات أخريات، ولكن التقاليد والأعراف - فى كثير من المجتمعات - تحول دون تحقيق هذه الرغائب والأمنيات. وآنئذ يكنَّ أمام خيارين: إما العيش بقية حياتهن فى كبت وصراع، يُغالبنَ عرامة[1] الشّهوة، وأوار الغريزةَ الفطرية، أو يلجأن إلى سبل الغواية والانحراف. وكلا الخيارين هلاك فى هلاك. وهنا لابد عقلاً أن يكون «التعدد» حلاً؛ وحلاً واقعياً وحكيماً، ووحيداً كذلك.

والعقيم التى تزوجت ولم تلد، وتعيش مع رجل يرغب فى الإنجاب. وهذه رغبة فطرية لا لوم عليها.. هذه العقيم إما أن ترضى بزوجة أخرى تقاسمها الحياة الزوجية، وإما أن تقبل الطلاق. والخيار الأول أقرب إلى التعقل والواقعية من شبح الطلاق الرعيب.

وقد تصل المرأة إلى سن اليأس، ويظل الرجل قوياً تغلبه شهوته، فيصبح من حقه التمتع فى حدود ما شرعه الدين، بدلاً من الكبت أو الغواية.

أضف ظروف الحرب، وما ينتج عنها من تقلص كبير فى عدد الرجال، فيكون «التعدد» فى هذه الحالة خير وسيلة؛ لإشباع الرغائب، وتجنب الخلل الشهواني.

وتبقى الحالة السابعة، وهى التى تتراءى لنا فى هذا العصر؛ حيث تشير التقارير إلى أن عدد النساء فى السنوات القادمة سيكون ضعف عدد الرجال، والمؤشرات

---

(1) شدة وغلبة.

الحاضرة للإنجاب تدل على ذلك ؛ تمهيداً ـ والله أعلم ـ لتحقيق علامة أخرى من علامات قرب الساعة .

وصفوة القول أن الإسلام أباح «التعدد» لانتشال المرأة من براثن الانحراف والغواية ، أو من حبائل الكآبة والكبت والحرمان ، وذلك فى ظروف لا يستقيم معها سوى «التعدد» ، وفى حالات لا تقبل إلا التعدد حلاً ومخرجاً . . فضلاً عن شروط العدالة والإنصاف التى فرضها الإسلام على الرجل فى هذه الحالة . وهنا يكون «التعدد» حفاظاً على المرأة من التشرد والضياع فى حالات الطلاق والعنوسة وقلة الرجال ، كما ذكرناها آنفاً .

وحين يرفض المجتمع «التعدد» ، وتلجأ بعض هذه الطوائف النسائية إلى إشباع الغريزة بالطرق غير المشروعة ، يكون قد أهدر كرامة المرأة ، وباع إنسانيتها ، واعتدى على ذاتها ؛ حيث تصير المرأة عندئذ ملهاة للعابثين ؛ تنتقل من خدْن[1] إلى خدْن ، ومن عابث إلى عابث . . فيعلو صوت الجسد فوق كل صوتٍ ، وترتفع أدخنة الخيانة ، وتمتد ألسنة الشك والريبة ؛ لتطال كل بيت ، فى هذا المجتمع الآثم!

هذه المرأة التى ساعدها المجتمع ـ بتقاليده المجحفة ـ على أن تغدو ملهاة للماجنين ، لا ترى لها مصيراً ، ولا تعرف لها قراراً . . أمَا أولى لكرامتها أن تأوى إلى ظل رجل متزوج عفيف ، فى بيت معلوم ، بدلاً من التقلب بين أزقة العبث والانحراف . . تُرمى حين يُنال منها المأرب ، وتُلفظ حين يُقضى منها الوطر . ما أشنع ظلم المجتمع للمرأة حينئذ! ، وما أبشع ما يقترفه من عدوان! ، وما أعظم الإسلام حين يضع لكل حالَة دواءَها ، ويبصر ـ عند التشريع ـ كل الزوايا والدروب!

ولقد كان الرجل فى المجتمع الجاهلى قبل الإسلام يتزوج من النساء ما شاء ، فجاء الإسلام فحدَّدَ التعدد بأربع ، واشترط العدل والإنصاف ، فإن انتفيا فلا تعدد : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[2] .

---

(1) صديق أو حبيب .

(2) الآية : بتمامها : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ سورة النساء آية : 3 .

وهكذا يأتى الإسلام بأعظم التشريعات، وأجل الأحكام؛ جامعاً بين الواقعية والاتزان، ورابطاً بين المرونة والثبات . . فى نسق عجيب، وضبط دقيق، دون إغفال لواردة أو شاردة؛ ذلك أنه منهج رب العالمين.

ويبقى المخادعون الرافعون لشعارات المساواة لاهثين وراء السراب، حاسبين أنهم يرفعون عن المرأة المذلة والهوان، وهم بدعاواهم يقذفون بها فى يَمٍّ الظلمات والضياع!

لا نريد اندفاعاً وراء الناعقين، ولا ترديداً لشعارات الآخرين؛ من دول الغرب، ومن يساندهم من المنافقين والمرتابين!

نريد الواقعية . . فكم من مطلقة أو عانس أو عقيم . . تلعن تلك الشعارات الزائفة، التى حرمتها من العيش فى كنف رجل متزوج، بدلاً من معاناة الكبت أو الضياع، فكان هذا الشتات نتيجة من نتائج الكبرياء الفارغة، التى اكتسبتها المرأة حين لهثت وراء دعوى المساواة؛ فعاملت الرجل كعدو لها، دون وعى لجوانب الكمال بينهما . . فجنت ـ بسبب هذه التصرفات الغريبة على المرأة المسلمة ـ كثيراً من الضلال والضياع!

﴿ .. وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾

هذه فتاة ممشوقة القوام، مهفهفة[1] لها فرع[2] وجيد[3]، وأخرى ذات حسب ونسب، مترعة فى النعيم، غارقة فى الترف والسرَف، وثالثة فى طريقها إلى شهادات علمية تنال بها اللقب السامى، وتكتسى بها الحظوة والتبجيل.

وعلى الجانب الآخر من هذه الحياة.. فتاة قد ألفها الفقر وألفته، واستساغت طعمه حتى هضمته، ولكن ملء جنبيها القناعة، وسابغ ردائها العفة والطهارة. تمنحك من الأخلاق أصفاها وتهبك من الطباع أنبلها وأرقاها.. قد جاءت تمشى على استحياء، يستهويك تدينها، ويجذبك استقامتها واحتشام هيئتها.

والفتى قد توزّعته الأفكار، وأضلعته الحيرة والشتات، يطلب هواه الزينة والجمال، ويستدعى عقلُه الحسب والمال، ويلح ضميرُه على العفة والاحتشام.

مفترق طرق.. قد يجنح الفتى إلى بعضها.. يخدعه زهو كاذب، أو رواء خادع، أو غشاوة تعمى القلوب والبصائر.

تراه يلهث وراءها، كأن الجمال قد نبع منها، وكأن الحسن يصفها، أو اللؤلؤ والياقوت من أخواتها.. قد تسرَّحَتْ به الأحلام من وادٍ إلى واد، وقد زين له الشيطان شططه وخياله.

وتراه يقسم بالأيمان المغلظة أن لو نالها لنال السعادة كلها، ولكانت حياته هنيئة مريئة، ولانزلقت عن صدره البلايا، ولطارت من فوق رأسه الرزايا، ولغدا رجل السعادة الأول، ولصار من أهل الهناءة والسرور.

ويشحذ فكره، ويكيد أمره، ويَفْتُقُ الحيلة بعد الحيلة، حتى يحقق مأربه، ويضم إليه محبوبته.

---

(1) ضامرة البطن خفيفة اللحم.
(2) شعر غزير.
(3) عنق.

حتى إذا مرت الأيام، وتكشّف القناع عما بينهما من حقائق وطباع، وبث كل منهما إلى صاحبه سخيمة نفسه وذات صدره.. هنا يتفقد ما غاب عنه من الدين وحسن الخلق، ويهلع لما فاته من الأصل وكرم الأرومة.. كأنها سحابة قد غطت على عينيه فلم يرَ شمساً كاسفة إن كانت أو ساطعة، وعض على يديه ندماً، ولكن بعد فوات الأوان!

حالة تتكرركل يوم فى دنيا الناس، ولكنهم لا يعتبرون، وقد لفت نظرهم إلى ذلك العليم الخبير مؤكداً ومشدداً، وأن الأمَة المؤمنة ذات الدين والخلق أفضل من غيرها ولو أعجبتكم: **﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾**(1).

والرسول نفسه قد بيّن الأمر وفصّل، وحدد وحذر، وأوصى بذات الدين، فقال فى حديث للبخارى ومسلم: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**».

ذلك أن عطاء الصورة الظاهرة وقتى، واستهواء الزينة البارزة لحظى، وليس قادراً على التجدد الدائم، والعطاء الواصل سوى طلاوة لذات، وحلاوة الروح. ولا يهذب الذات إلا الخُلق، ولا يزين الروح إلا الدين.

قد تجتمع طلاوة الصورة مع رقة الذات وشفافية الروح، ولكن ذلك على سبيل الندرة لا على وجه العموم والشمول.

أجل.. **أمَة مؤمنة** قد تسعد حياتك بعفتها وطهرها، ونبل طبعها، وطيب خُلقها خير من تلك الفاتنة المزهوة بجمالها.

أمَة مؤمنة.. تنتظر مجيئك، وتتلهف على مقدمك، وتتلمس مواطن الرضا خير من جامدة المشاعر، غليظة العواطف، تعادل بينك وبين نفسها دون حرج أو مواراة.

---

(1) سورة البقرة آية 221.

أمَة مؤمنة . . تشعرك بذاتك، وتطيب نفساً بقوامتك وقيادتك خير من أخرى لا تعبأ بك، ولا تلتفت إلى شؤونك وشجونك، ولا تبالى إن كنت راضياً أو ساخطاً.

أمَة مؤمنة . . تملأ بيتك عبادة وطاعة، وتزيد من خيره وبركته، وتعم السكينةُ أرجاءه ونواحيه خير من أخرى لاهمّ لها إلا مظهرها وزينتها، لا تسمع أذاناً، ولا تتلوا كتاباً، ولا تركع مع الراكعين!

كثير من الشباب الذين جروا وراء الجمال دون الخُلق والدين ندموا وخسروا، وذاقوا مرارة الخداع، وأسى المكر، وفتنة المظهر، وسوء المخبر، وتقلبت جوانبهم على لظى المقت والنفور.

لو لم تجد إلا أمَة، ولكن مؤمنة، خير من أخرى مشركة أو عاصية . . ولو أعجبتك، فاظفر بذات الدين تربت يداك!

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ .. ﴾ (1)

حين نقرأ خبراً يفيد أن حالات الإجهاض تزحف على المجتمع فى «المجر»، وباتت تزاحم حالات الولادة الطبيعية، وتتعادل معها؛ مما جعل أكثر من نصف البيوت المجرية خاوية تماماً من الأطفال، فزاد تبعاً لذلك المسنون، وقلّت الأجيال الناشئة، مما يعنى خللاً فادحاً فى التركيبة الاجتماعية هناك، ووصمها بالعطب والشيخوخة والاحتضار.

وألمانيا تعدل قانون الضمان الاجتماعى ليشمل العاهرات، وبنات الليل. وبلجيكا تعترف بنقابة تدعى «نقابة نساء الهوى»، يلتزم أعضاؤها من الغوانى بدفع الضرائب، والخضوع للكشف الصحى.

وإن تعجبْ فعَجَبٌ أن دولة مثل تركيا، يفترض أن تكون إسلامية فى واقعها، تلغى عقوبة الخيانة الزوجية. فمن حق الزوجة ـ فى نظر العلمانية الفاضحة ـ أن تنام مع من تشاء، دون أدنى اعتراض من زوج أو شرطة أو محكمة، ودون ملامة أو عتاب، أو حتى مجرد إشارة كالتى جاءت على لسان عزيز مصر، حين رأى زوجته تحاول الخيانة: ﴿ **يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ** ﴾ (2).

وفى جنوب شرق آسيا حدّث ولا حرج، حيث تبلغ تجارة الجنس هناك ذروتها، وغدت العفة فى هذه البلاد أبعد من مناط الثريا، وراجت دعارة الأطفال رواجاً يستأهل الفزع من قبل المنظمات غير الإسلامية، فضلاً عن هلع المسلمين المحافظين، حيث تشير الأرقام أن عدد الفتيان والفتيات من سن التاسعة إلى دون السابعة عشرة، والذين يعملون فى تجارة الجنس فى أنحاء آسيا يبلغ حوالى المليون، وأن هذه التجارة تدر مبالغ طائلة، تعد بالمليارات سنوياً!

وفى أنحاء العالم تبلغ الولادات غير الشرعية الملايين سنوياً، كما أن الملايين

---

(1) سورة النساء آية 25.
(2) سورة يوسف آية 29.

من النساء يلجأن إلى الإجهاض غير المضمون، مما يُسبب موت الآلاف منهن كل عام.

بيد أن خبراً نقلته صحيفة «الشرق الأوسط»[1] ، يتحدث عن مؤتمر عُقد فى ألمانيا. هذا المؤتمر لا يبحث أصحابه عن سلام يجوب أرجاء الشعوب المتصارعة، ولا عن عدالة تُؤمِّن للجوعى فى هذا العالم والهالكين مصيرهم، ولكن أصحاب هذا المؤتمر يبحثون فى شىء آخر؛ أشد تبجحاً، وأكثر إيلاماً.

اقرأ معى هذا الخبر:

«عقدت بنات الليل من مختلف بقاع ألمانيا مؤتمراً خاصاً لهن فى العاصمة الألمانية «برلين». وستنهمك المندوبات السبعين حتى يوم الأربعاء القادم، الذى تمَّ اختياره كـ «يوم العاهرات العالمى» فى نقاش حام حول الشؤون القانونية والاجتماعية والمالية الخاصة بهن. كما ستتبادل النسوة الخبرات اليومية المستمدة من مهنتهن ومتاعبها. وتعتبر المجتمعات أن «أهم أهداف المنظمة هو إلغاء العقوبات القانونية المثبتة فى القوانين الألمانية، والاعتراف بالدعارة كمهنة أسوة بالمهن الأخرى، ووضع ودفع الضمانات الاجتماعية والتقاعد لممارستها..».

ومن المضحكات المبكيات أنهن يرغبن فى تبادل الخبرات بينهن، والعمل على إزالة المتاعب التى تطأ ساحتهن، والمخاطر التى تحدق بهن، والبحث عن سبل تأمين المستقبل من غوائل الفاقة وعوادى الدهر.

وبعد لأى[2] يجزمن أن هذه المهنة لها من الحقوق والمكانة والاعتبار ما للمهن الأخرى سواءً بسواء، وأنهن يبذلن جهداً، لا يجوز لأحد أن يزدريه، أو يعده لهواً وباطلاً.

أجل.. إنهن يُسْدين للبشرية خدمات جليلة، ومنافع عديدة، أبسطها تلك الأمراض الهالكة، التى تتكالب على الناس من كل حدب وصوب، بسبب ما يقمن به من جهد شاق، وعمل مخلص!

وهكذا تنقلب الموازين رأساً على عقب فى هذا العصر الظالم أهله، وتَتْبَع الرزية فيه البلية، ويَبْعث الأسى أسىً مثله:

---

(1) نُشر بتاريخ 3-6-1999 م

(2) مشقة وبحث.

فقلت له : إنَّ الأسَى يَبْعثُ الأسَى فَدَعْنى فهذا كلُّهُ قَبْر مالكٍ

ولكن الأمر الذى لا يعسر تحقيقه، ولا يصعب تصديقه، أن تلك الفئات من الغوانى والشاذين والماجنين قد بسطت ظلها على المجتمعات المتحررة، واجتازت خيلها الحدود والأعراف. وسَنَّ لها معظم الساسة فى هذه المجتمعات القوانين التى تحفظ حقوقها، وتقوِّى نفوذها، وتجعلها فى مصاف الفئات المحترمة الأخرى. فغدا الحق والباطل سواء، والفضيلة والرذيلة لا فواصل بينهما ولا حدود، فارتفع التمييز عن دنيا الناس هناك، وحط الهوى ضارباً خيامه، ناشراً أعلامه على أرض العباد، فغابت الهوية، واضطربت الرؤى، وتلاشت المبادئ، وغدت الحيرة سمة المجتمع، وصار الشتات هو قانون الحياة، وأصيبت النفس الإنسانية هناك بهزة عنيفة، وانتكاسة أسيفة، كان الانتحار فى كثير من الحالات هو طريق الخلاص والنجاة!

ولكن الأمراض التى تبثها هذه الفئات الشاذة، وأصاب المجتمعَ البشرى دخُنها وأوارها، ما فتئت تهدد البشرية بكثير من الويلات، وتنذر بخاتمة شؤم وسوء.

فقد حذرت منظمة الصحة العالمية من عشرات الفيروسات التى تسببها الممارسات الجنسية غير الشرعية، والتى استعصت على الطب الحديث، وأبت أن يقهرها عقار من مئات العقاقير التى تبتكر يوماً بعد يوم.

وهناك الملايين من البشر يموتون سنوياً بسبب هذه الأمراض الجنسية، التى تحصد أضعاف ما حصدته الحرب العالمية، التى نتخذها مثلاً للهلاك والدمار. هذه الحرب قائمة بيننا كل عام، وبصورة أفظع، ولكن العدو فيها هو تلك الفيروسات، التى تسببها الغواية والخطيئة، والتى لا دواء لها، والتى تحصد ملايين من البشر على وجه هذه البسيطة.

حين نقرأ هذه الأخبار، ونسبر غورها، وهى غيض من فيض، يتبين لنا أهمية تأكيد القرآن على الإحصان والعفاف، وتحذيره من العرى والفحش.

لقد كان القرآن دقيقاً كل الدقة فى اختيار هذه الألفاظ : ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ

﴿مُسَافِحِينَ﴾[1]، أو ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾[2]. فكأن الزواج الشرعى بمثابة الحصن الذى يدرأ عن الإنسان مهالك الهوى، وأوضار الزنى، وأرزاء الغواية والفساد.

لقد تفلتت البشرية اليوم، وخرجت من هذا الحصن الحصين، وهربت من تعاليم خالقها، وشربت من الآثام شرب الهيم، واستساغت الفحش، وهضمت الرجس، ودانت للمعاصى، فزلّت أقدامها، وهوت إلى حفرة الوضيعة والخطيطة، وتحاول الآن جهدها للخروج، وأنى لها أن تنجو؟! وهى متبطرة بعصيانها، متعالية على بارئها، تدعى بُصْراً، وهى تتخبط العميان، وتحركها الأهواء كالدمى فى أيدى الأطفال.

والبشرية أثناء شرودها عن الدين لم تكن تلوى على شىء، فأصابها غم بغم؛ لكى تحزن على ما أصابها من انحلال وفساد، وما فاتها من خير وصلاح.

أنَّى لمجتمع أن يهنأ، وقد وضع للغوانى حقوقاً، وللعاهرات قانوناً، ولبنات الليل حماية ومكانة؟!

وأنَّى للبشرية أن تنعم، وقد أباحت الخيانة، وأحلت الغواية؛ فتفككت المجتمعات، وتناثرت قطعاً لا يُمسكها سبب؟!

وأنَّى للعالم أن يحافظ على هويته، وأطفاله يتمرغون فى وحل الدعارة، ويداسون تحت سنابك الفحش والإجرام؟!

وماذا بقى للصالحين من خير؟ حين تعترف بعض المجتمعات بنقابة تضم نساء الهوى؛ فيها حقوق وضمانات، وفيها رعاية وحماية. والشرفاء ـ هناك ـ فى كثير من المجتمعات يُدَاسُون ويُحْرَمُون، يهيمون فى الأرض دون مأوى أو قرار، لا يجدون لهم مكاناً فى عالم الهوى والرذيلة.

لقد كنا نقرأ كلمة «محصنين» فى آيات القرآن دون تدقيق، ولكن القرآن العظيم فى لفظه، المبدع فى معناه، قد اختار من مرادفات الزواج والعفاف معنى «الإحصان». فالزواج بمثابة الحصن الذى يفيء إليه الفرد من لفح الوقوع فى الإثم،

---

(1) سورة النساء آية 24. (2) سورة النساء آية 25.

ويثوب إليه المجتمع من أوار العرى والفحش، وتتحصن به البشرية ـ حين تلجأ إليه ـ من هذه المخاطر الفاجعة، وهذه الأدواء الهالكة، التى نراها اليوم وأمس وغداً.

إن المسافحة أو المخادنة شر أى شر، ينبغى على المجتمعات التفصى[1] من مسالكها، والهروب من طرائقها، والتفلت من حبائلها، إن هى أرادت النجاة من أوزار هذه المسافحة، والبعُد عن لأوائها ومصائبها.

ولكن مجتمعات المسلمين ما زالت فى غيها سادرة، وعن تعاليم دينها شاردة لاهية، فأصابها ما أصاب مجتمعات التحرر؛ لأنها خالت فيها التحضر والمدنية، فنهلت من معينها الشائبة قبل الصافية. تقلد دون عقل، وتحاكى دون اتئاد، وتَتْبَع دون روية، وتسير فى قافلتها دون وعى أو إدراك.

وماذا يضيرنا لو رجعنا إلى القرآن؟! فأخذنا بالإحصان والعفاف والزواج، ورمينا الغواية والعرى والانحلال وراء ظهورنا. ولكن العالم الفاحش لا يريد المتطهرين، سيراً على طريقة قوم لوط: ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[2].

إلا أن مجتمعات التحرر والانفلات حين ترفض فكرة الزواج، فإنها تكون جنت على المرأة شراً عظيماً؛ لأن الزواج يعنى للمرأة التستر والعفاف، ويعنى كذلك حياة كريمة تليق بها، تؤدى الواجبات، وتستمد الحقوق، وتشعر بدورها فى التربية والتنشئة، وينظر إليها المجتمع الواعى نظرة إجلال وتقدير.

أما حين يغلق المجتمع فى وجه المرأة باب الزواج، ويزين لها طريق الفحش والرذيلة، فإنه يكون قد باعها بأبخس الأثمان، ورمى بها فى تيه أشد ضلالاً من تيه بنى إسرائيل!

إن المرأة حين تزاول السفاح، تكون مهينة أيما إهانة، وتكون أقرب إلى صفة الحيوانية منها إلى الإنسانية، وتقتات الذل والهوان، ويطاردها الخواء، وتتقلب بين أحضان الرزايا، وتغدو مع البلايا، وتروح مع الرجس والدنايا، وتصير مأكلة لبنى

---

(1) التخلص. (2) سورة النمل آية 56.

النزوات الماجنة، ولقمة سائغة لأولى الشهوات الهابطة. يستروح بها كل مستروح، ويطلبها كل طالب، ويجرى وراءها كل ناعق. فأية كرامة منحوها للمرأة بهذا الوضع البغيض؟! وأية حرية نالت بهذا الاستغلال الدنيء؟!

ولكن الإسلام انتشلها من براثن الهلاك، وأخرجها من مراتع الغواية، وجعل لها بيتاً ومستقراً، ووضع لها حقوقاً وواجبات، وجعل لها مكانة وشأناً، ورفعها فوق مواطن الشبهات، وأكرمها وأعلى منزلتها، وصنع منها أماً تحت أقدامها الجنان، وقرن طاعتها بطاعة الرحمن. وأباح لها زوجاً يصون الحرمات، ويدرأ عن حماها كل راع يرعى حول الحمى، فلا يوشك أن يقع فيه. إنه الحفظ والإكرام، كما أراد لها الدّين العظيم.

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ... ﴾

إن رفض قوامة الرجل فى مجتمع من المجتمعات دليل على نقص فى التمييز، وعلى قلة فى الإدراك والفهم والإنصاف، وفيه اعتداء على المرأة ذاتها، وتفكك لشخصيتها، وأن تظل دائماً فى التيه والتشتت والانقسام.. وفيه كذلك تفسُّخ الأسر، وتشرد النشء، ونضوب الفضائل، وضيق الأخلاق، وفيه أيضاً تهديد للمجتمع ذاته بالفناء، أو التقوقع فى زاوية الاحتضار والنسيان!

قد يبدو الأمر مستغرباً من لدن الذين فى قلوبهم مرض، أو فى عيونهم رمص وغمص، أو أولئك الذين فى حُلوقهم غصَّةُ التقليد والمحاكاة. ولكن الحقائق تظل ساطعة، ما دامت شمس القرآن تمدها بالدفء والحيوية، وما دام نور الوحى يسرى فى حناياها برهاناً وتأييداً. فالحق ما قاله الحق سبحانه، والخير هو ما جاء به الإسلام للناس كافة.

وقوامة الرجل ثابتة بالقرآن الكريم: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ..﴾(1)، وهى جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، غير قابلة للتلبس أو التمحُّل أو الامتزاج. والقوامة كذلك أصل من أصول حياة الرسول ـ ﷺ ـ، والصحابة، والتابعين، وسلف الأمة.. وراسخة أيضاً فى عقل الرجل العربى رسوخ الوتد وسط الخباء، بل راسخة فى قلب كل امرأة تنتمى إلى عالم الشرق، فلا تروق لها حياة دون تحقيق قوامة الرجل ووضوحها. فهى تعيب على الرجل المتأخر تأخرُهُ، وتفخر بالذى يحمى الذمار(2)، ويكون رافداً للعيش والحياة.

ولكن العقل الغربى أصيب بجرح مميت، وسبَّة لا تزول، حين أذن للمرأة أن تزاول القوامة كما يزاولها الرجل سواءً بسواء؛ تحقيقاً لدعاوى المساواة، وشعارات التحرر الزائفة، فاضطربت ـ تبعاً لذلك ـ معايير الرجولة اضطراباً شديداً، وتزلزلت أقدام الرجال فوق جليد أوروبا البارد، فنعمُوا بتزحلق عانقت الرأسُ فيه الصقيع والأوحال. ونحن بالغرب مفتونون، وَبكل شىءٍ يقدمون عليه ـ مقلدون

---

(1) سورة النساء آية 34.
(2) الذمار: كل ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه.

مضاهئون، لا نميز بين شمسنا الساطعة، وشمسهم الكاسفة، ولا بين جلدتنا التى لفحتهَا الشمس والصحراء، وجلدتهم الصفراء الباردة!

ولو سلكنا مسالك الأدلة على قوامة الرجل، لكان أهل الفطرة أدرى بشعابها. فالفطرة تستهجن المرأة التى تسترجل، أو تتسلط، أو تتجاوز دور الرجال، وتستهجن ـ كذلك ـ الرجل؛ فيه صفات الخناعة واللين والانصياع. فالأنثى فى تكوينها وذاتها وفطرتها تطلب الرجل القوّام، وترتاح إلى قوته وحمايته، وترغب فى ذلك وتلح عليه. فحاجتها إلى إنفاق الرجل ـ حتى لو كانت ذات مال ـ وإلى قوامته فطرية طبيعية.. يسرى ذلك فى دمها وروحها سريان الماء فى الجدول الرقراق. كما أن طبيعة الرجل قائمة على التصدى والتحمل والبروز والمغامرة، ولو فقد واحدة منها كان مُلاماً، ولو اكتسبت المرأة واحدة منها كانت مُلامة هى الأخرى. فالمرأة تحب الرجل القوى المنفق، فيزداد أمنها كلما ازدادت شخصية الرجل، وقوامته وهيبته. والرجل يحب ـ كذلك ـ أن يُنْفق ولا يُنْفَق عليه، وأن يُجير ولا يُجيره أحد.. هكذا خُلقَ الرجل، وهكذا كانت الأنثى!

حتى إن لفظ «رجل»، ولفظ «امرأة» يمنح القوامة للأول، وكذلك طبيعة الرجل، وطبيعة الأنثى. وليس ذلك عيباً للمرأة، ولا ميزة للرجل. فالعيوب والمزايا ـ فى هذه القضية ـ متداخلة، وليست ذاتية مفردة؛ فعيب المرأة يُصيب الرجل، وعيب الرجل يُصيب المرأة؛ فهما من نفس واحدة ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾(1)، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(2)، ولو تأملت كلمة «منها» فى الآيتين، لرأيت العلاقة الحقيقية بين الرجل والمرأة؛ فالمرأة من ذات الرجل، وليست غريبة عنه، ولا من جنس آخر أقل شأناً؛ بل خُلقت من ضلعه ليجتمعا ويكْتَملا. فلا قيمة لعيوب أحدهما ـ إن عُدَّت عيوباً ـ، ولا قيمة لمزايا أحدهما ـ إن عُدَّتْ مزايا ـ، ولكن القيمة فى هذا التكامل، وذاك التوحُّد، فتتلاشى العيوب الفردية، لتصير مزايا اجتماعية تكاملية. فضعفُ المرأة مَحْمَدَة لها عند الرجل، وقوة الرجل مَحْمَدَة له عند المرأة. وليس الضعف هنا

(1) سورة النساء آية 1
(2) سورة الأعراف آية 189

ضعف العقل أو الروح؛ بل ضعف العطف والتسامح واللين، كما أن القوة هنا ليست قوة العقل أو الروح؛ بل قوة التحمّل والظهور. فكان ضعف المرأة أجمل ما فيها، فعُدَّ قوةً، وكانت قوة الرجل أجمل ما فيه، فاشْتُرِطَ لهذه القوة حماية المرأة والدفاع عنها، فصارا كغطاء واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾(1).

ولكن أعداء الإسلام جعلوا الرجل والمرأة ندَّيْن متنافسين، ثم رفعوا شعارات المساواة، فلما استويا اصْطَدَمَا، فاصطدمتْ معهما الحياةُ، قد غفلوا فطرة الرجل والمرأة، وظنوا أن كل شيء ـ في هذه الدنيا ـ بنود وأرقام، مازجين بين الآلات وبين الذات. . والفرق بعيد، جدّ بعيد!

إن المساس بقوامة الرجل هو جناية في حق المجتمع، وحتى الطفولة على وجه الخصوص؛ لأن إعطاء القوامة للمرأة يعني التحرر الزائد، ويعني الخروج الدائم، ويعني ـ كذلك ـ فقدان الطفولة للصدر الحنون الهارب في دروب الحياة!

وهذه هي دول الاتحاد الأوروبي، التي انتشر فيها ما يُسمى «أسرة الأمر الواقع»، وهو مصطلح يعني زيادة معدلات الإنجاب خارج إطار الزواج القانوني، وأدى ذلك ـ بالطبع ـ إلى انخفاض حاد في حالات الزواج، وازدياد مطرد في حالات الطلاق، وبروز شرائح شبابية كثيرة ومتعددة تربت خارج حدود الأسرة. وقد عزا علماء الاجتماع ذلك إلى الصراع القائم بين الرجل والمرأة على الحقوق والمساواة، فأدى التحرر الزائد للمرأة إلى تَرَدُّد الرجل في إقامة علاقة رسمية، قد تنهار في لحظة واحدة، إذا أرادت الزوجة ذلك متى شاءت! وهكذا جنى المجتمع الغربي ثمار ما زرع؛ فكان نكداً خبيثاً، تلفظه أرض الإسلام الخصبة!

وقوامة الرجل ـ كذلك ـ حماية للمرأة، وراحة لها؛ لأن التفريط في هذه القوامة، والتهاون بحقها، يعني غياب حتمية الإنفاق من قبل الرجل، وهروبه من التزاماته المادية خصوصاً، مما يجعل المرأة مضطرة إلى مزاوَلة العمل، مضافاً إليه تربية النشء، وحقوق الأسرة، وهذا يعني اضطهاد المرأة، ووقوع الظلم عليها، وتكليفها بما لا تطيق. . في حين يغط الزوج في سبات عميق، يفيق منه نافشاً ريشَه، نافخاً عضلاته، تقوده قدماه إلى المقاهي، ومقارعة رفاق السوء، مع أن هذه

(1) سورة البقرة آية 187

المسكينة تقوم بعملها، وعمل غيرها . . وهذه صورة مغلوطة ومقلوبة، نرى نماذج منها هنا وهناك .

إن قوامة الرجل ـ بمفهومها الإسلامى الصحيح ـ تساوى راحة المرأة، وفقدانها يعنى فقدان راحتها . . وكأنى أرى الفتاة المقبلة على الزواج، تتطلع إلى ذلك الفتى الشهم، الذى يقيها عوادى الدهر، ويصرف عنها نوائبه، ويريحها بإنفاقه وقوامته، فتعيش فى مملكتها آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، مصونة كاللؤلؤ المكنون، ومحفوظة كالجوهرة الثمينة . . لا يُداس لها طرف، ولا يُخفض لها جناح .

وما ارتعدت فرائص المطلقات والأرامل إلا لغياب الرجل المنفق، الحامى للذمار، الساتر للأعراض .

وللحق، فهناك من الرجال من لا يُحسن القوامة؛ فيميل إلى التسلط الذميم، أو الضعف المزرى . . وللحق ـ كذلك ـ هناك من النساء من يُقدّمْن للأسرة من مال، ورعاية، أفضل بكثير من الرجال . . ولكن يظل ذلك دون القاعدة التى فطر الله الناس عليها، وتظل قوامة الرجل بمثابة الترياق الذى يدرأ عن الأسرة السموم والأخطار، ويدفع عنها ضر الدعوات الهجينة .

﴿.. وَاضْرِبُوهُنَّ..﴾

فى خضم المعركة المحتدمة بين الرجل والمرأة فى هذا العصر، يحلو لكثير من عبيد التحرر، ومماليك الفوضى والانفلات، تأجيج لهيبها، وإذكاء أوارها؛ من أجل اختلاط الأوراق لدى المرأة المسلمة خاصة.. فراحوا يصورون المرأة على أنها مسلوبة الحقوق، مهضومة المكانة، وراحت هى الأخرى تنصت لتلك الدعاوى الماكرة، والأبواق الزائفة، وشرعت فى البحث عن حقوق؛ نراها ضبابية فى سماء ملبدة بالغيوم، تُنذر بريح عاتية، وظلمات ورعد وبرق، تُذهب بالقيم والمبادئ الأصيلة، وتعين على التصدع والانهيار!

وما جنت المرأة من هذه الدعاوى إلا غياب حقوقها الإنسانية، فضلاً عن الحقوق الأخرى التى ينادون بها، فخسرت المرأة العصرية تلك المعركة، وخسرت معها كرامتها وإنسانيتها.. حيث وضعوها ـ شكلاً لا جوهراً ـ فى مجالات العمل السطحية، وزينوا بها محلاتهم ومكاتبهم؛ بل جعلوها أداة يجلبون من ورائها الملايين فى دنيا الدعاية والإعلام!

وزاد تبجح هؤلاء، وقلّ أدبهم، حينما قلبوا الحقائق، وخلطوا الحق بالباطل؛ فعابوا على الإسلام موقفه من المرأة، ونسوا ـ بل تناسوا ـ ما فعله الإسلام فى حق المرأة من علو المكانة، وسموّ الشخصية، واحترام الذات، وأنه انتشلها من مستنقع الذل والمهانة الذى غمرها خلال العصور التى سبقت الإسلام، فلم تشعر المرأة بذاتها وشخصيتها إلا ببزوغ فجر الإسلام.

وبلغ التبجح عنان السماء، حين راحوا ينتقون ألفاظاً قرآنية؛ من أجل تفريغها من مضمونها الصحيح؛ وصولاً إلى بلبلة هم يرجونها، وتحقيقاً لفتنة يتحركون هم بالسقوط فيها إن شاء الله!

من ذلك قوله تعالى للرجال: ﴿.. وَاضْرِبُوهُنَّ..﴾ هكذا قرؤوها دون الرجوع إلى الآية من أولها؛ كمن قرأ **﴿فويل للمصلين﴾** وسكت! ولم يدركوا أن هذا الأمر الإلهى ضرورة حيوية لاستقامة الأسرة فى ظرف من الظروف، وأن ذلك يمثل صورة من صور الحلول الواقعية، التى تعيد الأمور إلى نصابها، والتى برهنت على

نجاحها وفاعليتها فى كثير من حالات الخلاف بين الزوجين . . هذه الصورة قد لا يدركها إلا أولو الأبصار، وأولو النظرة الواقعية الثاقبة، وذوو النفوس الصافية من كل لؤم أو مكر أو خداع .

وللأسى . . يتحرج كثير من العلماء والمفكرين عندنا من الحديث حول هذه النقطة الشائكة من وجهة نظرهم، فى حين راح المخلصون منهم يدافعون عن الإسلام وموقفه كأنه متهم، ظانِّين أنهم بذلك قد فعلوا الخير كله .

والآية التى ورد فيها قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ هى من سورة النساء، حيث تقرر فى بدايتها أن الرجال قوامون على النساء والسبب فى ذلك واضح جلى . . فهذه القوامة عائدة إلى طبيعة التكوين، وحتمية العمل، وضرورة الإنفاق، وأشياء أخرى وضعها الله فى الرجل ابتداءً .

والأسرة لابد لها من قيادة واحدة، ولا يقول عاقل أنها تذهب للمرأة، فإن لم يقنعوا فليذهبوا إلى المرأة وليسألوها فى تولى قيادة الأسرة، وليستفتوها فى تحمل أعبائها، والدفاع عن مخاطرها، ولو فعلوا واستفتوا، لوجدوا منها التذمر والرفض التام فى القيام بهذا الأمر الذى لا يتناسب مع طبيعتها . . حتى إن كثيراً من الزوجات يصبن بخيبة أمل كبيرة، حينما يشاهدن الضعف فى شخصية أزواجهن، وعدم قدرتهم على تولى القيادة والمسؤولية . . فالمرأة دائماً فى حاجة إلى رجل قوى، تشعر بالأمن والحماية من خلفه، فهذه فطرة الله التى فطر الأنثى عليها .

وبعد أن قررت الآية مبدأ القوامة للرجال، امتدحت طائفة من النساء؛ بأنهن صالحات قانتات حافظات للغيب، ثم بدأت فى الحديث عن ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾، والنشوز فى اللغة هو الارتفاع؛ فكأنّ المرأة ارتفعت بمكانتها فوق الرجل، فصارت تتصرف وفق أهوائها، ضاربة بقوامة الرجل عرض الحائط، ولازمت العناد الصفيق، واستمرأت التمرد والإعراض، فاتسع الخرق على الراقع، وأصبحت الأسرة فى مهب الريح!

هنا لابد من التدخل والعلاج؛ فبدأت الآية أولى مراحل الحلول الواقعية : ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾، فإن أبت الموعظة كانت المرحلة الثانية : ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾، فإن أبت كانت المرحلة الأخيرة : ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ .

فالزوجة التى لا تنصاع للموعظة الحسنة، ولا تصغى لنداء العقل والحكمة، وتستحلى التمرد والانفلات على مصلحة الأسرة، وطمأنينة الحياة الزوجية.. هذه الزوجة التى لم تعتد بالهجر فى المضاجع، وبلغت شأواً كبيراً فى التحدى وعدم المبالاة، دون أسباب تؤدى إلى هذا العصيان من جانب الزوج، ودون أسباب أسرية أخرى.. هذه الزوجة التى اعتلت منصة الحكم الأسرى، وارتفع صوتها على كل صوت فيها، وأبت الانصياع والموعظة دون أسباب أو تعْلات.. هذه الزوجة لابد أن بها خللاً فى التربية والتنشئة، ولابد لها كذلك من زاجر ورادع، فلا يعقل أن يُترك الأمر يستفحل حتى تقع الطامة الكبرى.. هنا يضطر الزوج إلى وسيلة الضرب غير المبرح:

إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فما حيلة المضطر إلا ركـوبها

ولابد من بعض القسوة فى هذه الحالة:

فقسا ليزدجروا، ومن يك راحماً فلْيقسُ أحيـاناً على من يرحـــم

فالضرب فى الآية ليس لعموم النساء، ولكن لطائفة شاذة منهن.. ولو تتبعنا مـراحل العــلاج فى الآية، لوجــدنا أن نسب10% أو أقل من ذلك، هن اللائى يستحققن هذا العقاب، وأجزم أن 90 % من النساء - فى حالة تمردهن - يستجبن لحالة الوعظ، أو حالة الهجر.. فضلاً عن طائفة الصالحات القانتات، التى ورد ذكرها ابتداءً.

هذه النسبة القليلة الشاذة، التى ألفت التمرد، واستساغت العصيان، كيف يعالج الرجل أمرها؟! أيعالجه بهز الكتفين، ومصمصة الشفتين؟! أم يترك الأسرة تتقاذفها الأعاصير، ويقتلها الشتات؟!

فالمرأة فى هذه الحالة هى التى ترغم الرجل على ممارسة هذا الحق؛ وهو حق التأديب والزجر، وهى فى غنى عن الوصول إلى هذه الحافة، وتلك الهاوية، فهى أولى بالزجر من أن يُربِّتَ على نشوزها، بحجة الحقوق والمساواة. فأية حقوق لهذا النوع الشاذ من النساء؟! وأية مساواة هذه؟! التى تجلب على الأسرة التشرد والضياع!

ولكن أعداء الإسلام حملوا الأمر على إطلاقه، فادَّعوا أن الإسلام أباح

للرجل أن يضرب الزوجة متى شاء، وأن ذلك حق مكفول له، ولم يعلموا - وأعتقدأنهم يعلمون - أن الإسلام يحرم الضرب والاعتداء دون شرعية، وأن من يفعل ذلك يلقَ أثاماً، ولم يعلموا - كذلك - أن كثيراً من الزوجات لا يصلن إلى حالة استحقاق الضرب هذه، وأنها طائفة قليلة وشاذة، اعتبرها القرآن نشوزاً. . ولكن أعداء الإسلام جعلوا الاستثناء قاعدة، وجعلوا إحدى مراحل العلاج هى كل المراحل، وماذا عليهم لو وضعوا السبب على مسببه، والدواء لدائه، والظرف لظرفه؟! وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق!

فهذه الحالة لا تنسحب على حالات المرأة فى الإسلام، وإلا نكون قد ظلمنا أنفسنا، وظلمنا ديننا ظلماً فادحاً. . فالمرأة الأم لا يقال لها أُفّ: ﴿**فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ**﴾، بل اقترنت طاعة الوالدين بطاعة الله سبحانه. فأى تكريم فوق هذا التكريم؟! وأى احتفاء فوق هذا الاحتفاء؟!

فالتى لا نقول لها ﴿**أُفٍّ**﴾ امرأة أم، والزوجة المتمردة التى أُمر بزجرها من قبل قيِّمها - وهو زوجها - مأمورٌ أبناؤها أن يبرّوها، ولا يقولوا لها «أُف» كذلك، بلَ إن رضاها من رضا الله سبحانه، وما زالت الجنة تحت قدميها. . حتى الأم الكافرة - والعياذ بالله - مأمور أبناؤها بحسن صحبتها وطاعتها فى المعروف!

فأية واقعية هذه التى جاء بها الإسلام؟! وأية مراعاة للظروف والمواقف أنسب وأليق من هذا؟! إنه دين التكامل، ودين التوازن العظيم!!!

وإخالك قانعاً معى بصورة الأب الذى يعاقب ابنه عند الغلط، وكذلك صورة الأستاذ الذى يؤدب تلميذه عند الخطأ. . أفلا تنسحب هاتان الصورتان على حالة الزوجة الناشز، وخصوصاً أن هناك قائد ومقود، وتابع ومتبوع!

ولكن إحقاقاً للحق. . هناك من الرجال من يمارسون عادة الضرب بسبب وبدون سبب، كأنه حق مشروع لهم، يُطالون به الزوجة متى شاءوا، وهم فى هذه الحالة يرتكبون خطأً فاحشاً، يدل على نقص فى الرجولة، وقلة فى التمييز كذلك وهم بذلك يضربون مثلاً للتوقح والتبجح، بل يغدون مثلاً للعنجهية والتخلف!

وللحق - كذلك - أن هناك من الزوجات من استغللْنَ رواج الحملة المستعرة ضد الرجل، والمناداة بالمساواة، فرحْنَ يمارسن نوعاً من التسلط والكبرياء على

أزواجهم؛ خصوصاً ذلك الصنف من الرجال الذى يتصف بالذوق الرفيع أحياناً، أو يتصف بكثير من عوارض الضعف، وغياب الشخصية . . وهن فى هذه الحالة يرتكبون أيضاً خطأ، قد يكون أقل من الخطأ الأول .

وإتماماً للصورة السابقة نرى نوعاً من الزوجات قد تربى فى بيوت آبائهن على الغلظة والقسوة، فارتبطت فى أذهانهن صورة الرجولة مع صورة التشدد، فصرن لا يسلكن مسالك الطاعة إلا إذا علت فى سماء الأسرة أصوات الغلظة والكبرياءَ!

كما أن الرسول ﷺ أمر فى هذه الحالة بالضرب غيرالمبرح، وهو الضرب الذى لا يؤثر على جسد المرأة مطلقاً، وقد أورد ابن كثير عند قوله تعالى **«وَاضْرِبُوهُنَّ»** حديثاً رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة أن النبى ﷺ قال: **«لا تضربوا إماء الله»** فجاء عمر - رضى الله عنه - فقال: ذئرت النساءَ على أزواجهن، فرخص رسول الله فى ضربهن، فأطاف بآل رسول الله نساء كثير يشتكين أزواجهن. فقال رسول الله: **«لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»** .

هكذا جعل الرسول ﷺ لكل حالة حكماً يناسبها؛ فليس العقاب لمجرد العقاب، بل لعلاج حالة لا يجدى معها إلا هذا الدواء الناجع أحياناً، وهو فى الوقت ذاته عقاب رمزى، تقابله حالة تمرد شاذة من الزوجة، ولا يمس كرامتها فى شىء، بعد أن وارتْ كرامتها بيديها فى التراب؛ بنشوزها وعصيانها، وعدم احترامها لذاتها، أو ذات زوجها، أو لأسرتها عموماً .

إنه عقاب رمزى، قد لا يُستخدم فيه إلا «السواك» أداة لتأديب مهذب، يُشرعه الإسلام درءاً لمخاطر، قد تعصف بالأسرة، وتقذف بها فى غيابات التشرد والضياع .

ويظن كثير من السذج أن الشرق هو وحده الذى يمارس هذا الأمر، متخيلين أن دول الغرب من ذلك ببعيد . . فقد قرأت فى صحيفة «الشرق الأوسط» تقريراً يفيد أن ثلث عدد الأزواج الألمان يضربون زوجاتهم بشكل دائم فى البيت، وأن هذه الممارسة لا تتحدد بمستوى الزوج الثقافى ومنبته الاجتماعى، كما أشار التقرير إلى «أن هذه الممارسات - يقصد ضرب الزوجات - تلحق ضرراً نفسياً وجسدياً كبيراً بالنساء، يعيقهن عن ممارسة الحياة الطبيعية اليومية، وتربية أطفالهن بالشكل الصحيح . . » .

هذه فقط إحدى الصور الواقعة فى دول الغرب، قد لا نجد كثيراً منها فى مجتمعات الشرق، نسردها لأولئك المخدوعين بكل ما هو غربى، وبكل ما هو بعيد عن روح الإسلام!

ولا يُفهم من هذا البحث أن المرأة وحدها هى التى تستحق هذا العقاب الرمزى عند نشوزها وتمردها، فهناك بعض من الأزواج الرجال من يستحق بتصرفاته غير المسؤولة كثيراً من العقاب؛ قد لا ينفع معه «السواك» أداة للتهذيب!!!

﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾

يتدخل الشرع الحكيم هذه المرة، والمرأة فى أضعف حالاتها؛ يحاط بها الضياع من كل جانب، ويتكالب عليها الشتات من كل حدب وصوب . . يريد أن يحافظ عليها وهى فى الرمق الأخير من الصلاحية، فيُلقى عليها ثوب الحماية، ويدرأ عنها سهام الحيرة والقلق والضيق!

ولعل نقطة البُداءة تكون مع هذه الآية الكريمة:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].

والآية هنا تتحدث عن نشوز الرجل، وإعراضه عن زوجته، وتدعو الطرفين إلى الصلح، وتفضله على الطلاق.

وكأنَّ هناك مَنْ يوازن بين هذه الآية، والآية التى تتحدث عن نشوز الزوجة، وما يتبعه من وعظ وهجران وضرب: **﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ..﴾**[2]، حاسبين أن الشرع كان قاسياً على الزوجة عند نشوزها، رؤوفاً بالزوج عند نشوزه، وهذا لبس فى الفهم معيب، وخلط فى الموازنة مشين؛ ذلك أن نشوز الزوج فى الآية الكريمة ليس عائداً إلى عيب فى ذاته أو خلقه، بل عائد إلى عيب فى الزوجة، يبعث على إهمالها، والإعراض عنها!

فالزوجة حين تصير دميمة، أو مُسنَّة، أو بلا ولد، أو سيئة الخلق، أو مريضة مرضاً يحول دون حقوق الزوج . . حين تُبتلى الزوجة بواحدة من الحالات الخمس تلك، فإنها تخاف من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، وتخشى منه عنتاً أو إهمالاً، ويتخايل لها الطلاق من ليل أو نهار . .

(1) سورة النساء آية 128

(2) سورة النساء آية34.

أرأيت حالة من الضعف تتعرض لها المرأة أسوأ من هذه؟! كأنْ قد استدعت الحرج كله فنزل بساحتها، وكأنْ قد دعت الضيق والنفور والإعراض فاستَجَبْنَ لها. . فالزوجة ذات عيب معيب، والزوج نافر كاره، وشبح الفراق يطرق الأبواب!

ولكن الشرع الحكيم - كعادته - يتدخل لحماية المرأة، فهو قد كفلها منذ أن بزغ فجره، وتولى حمايتها والحفاظ عليها. . فتراه يدعو إلى الصلح، والصلح خير من الفراق والطلاق.

وطالما أن العيب عائد إلى الزوجة دون الزوج، وأنه من حقه عقلاً وشرعاً أن يهجرها ويطلقها، وحتى لا تتعرض العلاقة الزوجية إلى الانفصام، فإن الشرع الحكيم يندب الزوجة إلى التنازل عن بعض حقوقها من مبيت أو صداق أو نفقة، فلا يلتزم الزوج بما تنازلت عنه، بل يصير طليقاً بعض الشيء، لتنال الزوجة دوام العشرة، وطول الإقامة.

ويرى الشرع أن الصلح بين الزوجين بهذه الطريقة العادلة خير من الفراق، وتشتت الشمل، وخصوصاً أن الزوجة - ذات العيب - إن طُلقت، ستواجه مصيراً مشابهاً، وغداً حائراً من قلة المترددين عليها، وندرة الراغبين فى الزواج منها، ومن شبح الطلاق إن تزوجت كذلك!

لذا كان الإسلام واقعياً حين ندب إلى الصلح فى مثل هذه الحالة، واعتبره خيراً، وكان حكيماً كذلك حين يحافظ على العلاقة الزوجية وهى تتنفس أنفاسها الأخيرة، فيمدها بالحياة من جديد، وكان سخياً مع المرأة حين يأباها الرجال، فيُبقى على زوجها وبيتها، فلا تُلاقى ضياعاً وشتاتاً وموتاً زؤاماً!

ومثَّلت حالة «سودة بنت زمعة» هذه الآية تمثيلاً واقعياً، فقد أسنَّت وكبرت، وخشيت أن يفارقها رسول الله ﷺ، فتنازلت عن ليلتها لعائشة رضى الله عنها، فوافق رسول الله على ذلك.

ونأتى إلى اهتمام القرآن بالنفس البشرية، ومراعاة بواطنها وخباياها، فتراه لا يفرض الصلح فى مثل هذه الحالة فرضاً، بل يندب إليه، ويحض عليه؛ فالنشوز

من قبل الزوج، والعيب من جهة الزوجة، يحتاجان إلى تطييب وتحبيب، فتهدأ المشاعر، وتطمئن الخواطر، ويمضى العقل فى تحكيم العشرة التى دامت، وتفضيل الود الذى كان.

فالشرع هنا مثل الحكم الذى تُعرض عليه الحالة، فيحلل جوانبها، ويتفهم مواردها ومصادرها، ثم يقدم رأيه فى القضية؛ ليترك للزوجين حق الاختيار، فللزوجة ـ حين تُعَاب ـ أن تتنازل عن شيء من حقوقها؛ لتنعم بصحبة زوجها، وتستكمل العشرة التى بدأتها معه، أو تستمسك بكامل حقوقها، وتنتظر حينئذ العنت أو الطلاق!

ولكن الدين يُبغض الطلاق، ويحث على التشبث بالحياة الزوجية مهما كانت أسباب الخلاف قوية، ومهما كانت دواعى الكُره والنفور بارزة واضحة، ويدعو دائماً إلى التفاؤل، فعسى أن نكره شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، فلا يقطع خط الرجعة فى وجه أحد، ولا يقطع أسباب الرجاء!

والطلاق اسم بغيض حقاً، فهو قلق نفسى دائم، وأرق فكرى واصب، ويعنى انحداراً وتشتتاً للمرأة خصوصاً، وضياعاً لعزتها وكرامتها؛ لذا كان الصلح خيراً، كما قال القرآن الكريم، وكان التفاهم على بقاء العشرة ـ مهما عظمت التضحيات ـ خيراً من الفراق والطلاق.

ويؤسرنا القرآن دائماً بألفاظه الدقيقة، وعباراته الفياضة، حين يصف حالة الشح المتبادلة بين الزوجين فى مثل هذا الموقف العصيب: **﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾**.

ولم أرَ توصيفاً للصراع النفسى أبلغ من هذا؛ فالزوجة شديدة البخل، فيثقل عليها التنازل عن بعض حقوقها من مبيت ونفقة، فتراها ضنينة، لا تكاد تفرط فى بعض حقوقها، فالنفس قد جُبلت على البخل.

والزوج ـ كذلك ـ شديد البخل، فلا يتحمل أن يهتم بامرأة قد رغب عنها، وكره معايبها، فينفق عليها، ويقسم لها فى المبيت.

أجل . . لقد أحضرت الأنفس آنئذ الشح، والشح كله، ولكن الإحسان فى مثل هذه المواقف أدعى، وتقوى الله ومراقبته فى مثل هذه الحالة ألزم وأشد :

﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ .

إنه الإحسان يأتى فى موضعه تماماً، فليس بنافع فى هذا الموقف سوى الإحسان، وتَذَكُّر العشرة الماضية، وتقوى الله كذلك هى الرادع من ظلم الآخرين، أو التجنى عليهم!

﴿ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾(1)

من تمحيص القول أن التعدد فى الزواج فريضة من فرائض المجتمع العادل ؛ تتحقق فى حالات يُقرها الواقع، ويعززها البرهان . ولم يكن الإسلام بدعاً من الشرائع حين أباح التعدد ؛ بل كان واقعياً وحكيماً . فلو سرنا على قرعات طبول الزوجة الواحدة، فمن للنساء فى أزمات الحروب؟! ومن للمطلقات وأخواتهن من العانسات والأرامل؟! ومن للنساء حين يكثرن؟! ومن للرجل القوى حين تغلبه شهوته، ويكثر ماله؟!

ومن صفوة القول كذلك أن التعدد محمدة للمرأة، وليس مذمة لها . فهو الترياق الذى يدرأ عن طوائف من أيامى النساء الوقوع فى حبائل الكآبة والسآمة، أو التمرغ فى وحل العصيان والانحلال .

ولم يكن الإسلام ليبيح التعدد من أجل التذاذ الرجل وإمتاعه، كما يتوهم كثير من الناس، ولكنه مباح لاتقاء الفاحشة . فهو الحل الوحيد للعفاف ؛ فى حالات يقف أصحابها على شفا جرف هار، قد ينهار بهم إلى نار الفتنة واقتراف الآثام . . فكان التعدد هو المنقذ الآمن، ليس للرجل وحسب ؛ بل للمرأة التى لا تجد طريقاً لزواج الآحاد .

إلا أن الإسلام، وهو يبيح التعدد، لم يدع الأمر على عواهنه، فاشترط شرطاً، وحدّ حداً . فالشرط هو العدل، والحد هو القدرة . وبهما يطهر الإسلام ساحة التعدد من العبث والإنفلات، ويضفى عليه نوعاً من الجدية والالتزام . وبهما كذلك يضمن للمرأة حقوقها، ويحفظ لها كرامتها .

ولكن الآية التى نحن بصددها تنهانا عن «الميل» لزوجة دون أخرى، فتصير كالمعلقة . ذلك أن الإسلام يأبى أن يحيف(2) على المرأة، فيدعها بين الضرائر

---

(1) سورة النساء آية 129

(2) حاف عليه : ظلمه .

والعَلاَّت دون حماية أو وصاية، فألزم الراغب فى التعدد العدل، وحدد جوانبه تحديداً دقيقاً. فهو عدل فى المبيت والمسكن والنفقة، وحذر من التفريط فى أى جانب من هذه الجوانب. حتى إن الرسول ﷺ وصف الجائر فى ذلك وصفاً يليق بفعلته، ويتفق مع جوره وشططه، فقال فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره: **«من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»**.

ثم نأتى إلى عظمة الإسلام، حين يعفى الزوج من ميل القلب، فيُرفع القلم حين يميل إلى إحدى زوجاته ميل حب وعاطفة، ولكن القلم لا يُرفع حين يميل ميلاً آخر. هنا يخط القلم العقوبة، ويسجل السيئة تلو السيئة.

لقد كان حب الرسول ﷺ لعائشة واضحاً، وصريحاً أيضاً، ودعاؤه كان كذلك: **«اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»**. وهذه هى عظمة شرائع الإسلام، حين تجمع بين الواقع والكمال، وحين تتسم بالمرونة والاتزان.

ولكن كثيراً من المجتمعات الآن تقف فى وجه التعدد، وتعتبره دليل إجحاف، وعنصر بداوة، ويحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعاً بالمرأة، وأنهم يرفعون عنها الغبن والنقصان، ولكنهم قد خدعوها بهذه الشعارات الزائفة، والأبواق الفارغة، وفوَّتوا على طوائف عديدة من النساء فرصة الالتحاق بزوج عفيف، ومسكن آمن، بدلاً من الزج بهن فى غيابة الفحش، أو عذابات الكبت والقهر.

لقد أغلق المجتمع فى وجوه كثير من النساء أبواب الحلال الوضىء؛ ليُرْغَمْنَ على ولوج أبواب الفتنة والهلاك، فتُسحق حينئذ أعراضهن تحت سنابك الشياطين من الإنس والجان، أو يتكالب عليهن أمراض النفس، وأدواء القلب، رازحات تحت وطأة النسيان والشتات!

وأصبحت الزوجة الواحدة دون ضرائر تعانى شيئاً من العذاب؛ تعانى من «الميل» أيضاً، ولكنه «ميل» من نوع آخر، أشد وطئاً، وأقسى ظلماً. إنه ميل الزوج إلى نساء الخارج، فيدع زوجته كالمعلقة كذلك، تجأر من الوحدة والإهمال، وفى قلبه ترانيم من التحبب والتعشق، يوزع ألحانها على أنغام الحرام!

صحيح أن هناك من الأزواج من يظل وفياً لزوجته الواحدة دون ملل أو كلال، ولكن الكثير من الرجال يميل؛ فمنهم من يميل قلبه دون أن يقترف الآثام، يمنعه دينه من العصيان، ومنهم من يفكر فى الأمر ويعزم، بيد أن العادات تقيده، والأعراف السائدة تعوقه، ومنهم من يجترىء؛ ومن يجترىء إما أن يُعدّد، وإما أن يرتكب الفواحش دون اكتراث أو اهتمام.

حتى فى الحالات المستعصية التى لا يستقيم معها الزواج يصعب الطلاق، فلا يجرؤ أحد فى التفكير فيه، فأمامه طريق وعر يصارع فيه القضاء، فيه أنفاق مظلمة، ومنحنيات هالكة، فيفضل العيش مع زوجة هو فارك[1] لها، خير له من مصطرع الفرقة والطلاق.

إن كثيراً من الشباب الآن يظلون سنوات طوال يبحثون عن زوجة المستقبل، وهم محقون فى هذا المسمى؛ فهى زوجة المستقبل فعلاً، فلا يفرق بينهما إلا الموت مهما كانت العلات والمشكلات. فتراه يقدم رجلاً، ويؤخر أخرى؛ خوفاً من اختيار غير موفق، أو امرأة يخاف منها النشوز والإعراض.

لا تظن المرأة أن يظل الزوج قابضاً على قلبه، مالكاً عواطفه، مسلطاً إياها صوبها. إنه يميل. فهناك من الرجال من يظل مائلاً إلى زوجته الواحدة، المالئة عينيه، المالكة قلبه، ينعمان بحياة زوجية هانئة. وهذه حالة تستحق التمجيد، وتستأهل التحميد.

وهناك من يتغير قلبه، فيبدأ «الميل الخارجى». وهنا تُخلق المشكلات، وتُرفع الأصوات، ولا يطيب لهما لقاء؛ لأسباب من الزوج تارة، ومن الزوجة تارة أخرى. هنا نكون أمام عدة اختيارات؛ إما أن نسهل أمر التعدد، فتهدأ النفوس، ويستمر الزواج.

وأما أن يصلا إلى حد الفراق، ولا أظن امرأة عاقلة تقدم الطلاق حلاً

(1) كاره.

ومخرجاً. وإما أن يظلا فى هذا الصراع طول الحياة. والاختيار الأول هو الأقرب إلى الصواب، وهو الأليق بمثل هذه الحالات.

لا نريد أن نجرح مشاعر الزوجة الواحدة الهانئة مع زوجها، ولا نريد أن نبخسها حقها ومكانتها. فهناك زيجات لا تعدد فيها، نراها سعيدة أيما سعادة.

ولكننا نريد فقط أن نجفف منابع الحرام، ونفتح آفاق الحلال، لأولئك الذين لم يُوفقوا قليلاً أو كثيراً فى الزواج. نريد منهم أن ينظروا إلى التعدد نظرة واقع وإنصاف، بدلاً من معاناة الكبت، أو الانزلاق صوب الآثام.

إننا نريد أن نعود إلى شىء من زمن الصحابة. هناك المرأة المطلقة لم تكن تخشى شيئاً، ولم تكن الأرملة تخاف الضياع؛ لأن التعدد كان قائماً هناك، ففُتحت أبواب الزواج، فتصبح المرأة بلا زوج، وتمسى والزواج على بابها واصباً[1] راجياً، فلا يعرف القلق طريقاً إلى قلبها، ولا تحس يوماً بالضياع أو الشتات، بخلاف مجتمعاتنا، فليس أمام المطلقة أو الأرملة إلا الأرق والترقب والانتظار، وما ذلك بكائن لو أن التعدد قائم ومباح.

ليست هذه دعوة إلى التمرد على الزوجة الواحدة، فهناك من تستحق التقدير والإجلال، ولكن هناك حالات معينة تطلب التعدد؛ تفادياً للطلاق أو المشكلات.

إن المرأة العقيم، والمرأة ذات الخلق البغيض، والمرأة صاحبة الداء، وغيرهن من طوائف النساء، يمكن أن تستمر حياتهن الزوجية هنيئة مريئة، لو سمحت كل واحدة منهن بالتعدد. فرضا الزوج على زوجة ينسحب من مردودُه على الزوجة الأخرى، ولو كانت ذات علة أو داء.

لم تكن المرأة على وعى كامل حين رفضت التعدد، وحين ظنت أن البيت هو مملكتها التى لا يجوز لأحد أن ينازعها إياها. ولكن هذه المملكة قد تقوض أركانها، فماذا يضيرها لوتخلت عن بعض من أنانيتها؟ وانضمت إليها مطلقة أو أرملة أو عانس، أو حتى بكر.. فتهدأ النفوس وترتاح.

---

(1) لازماً دائماً.

هناك مملكة الزوجة الواحدة، التى منحها الله التوفيق والسعادة مع زوجها. هذه المملكة يجب الوفاء لها، والمحافظة عليها، وشكرُ الله على شموخها وسموها. هذه المملكة يجب على الزوج أن يصون مَلكتها الوحَيدة، وأن يضعها فوق رأسه، وأن يكنَّ لها التبجيل والاحترام.

ولكن هناك حالات تختل فيها هذه المملكة، وأرى التعدد حلاً ناجعاً لاتزانها وإصلاحها.

لا تنظروا إلى الغرب، فهم أناس لا يهمهم الزواج فى قليل أو كثير، ولا يرون فى الزنى بأساً، بل يرونه تحرراً وتحضراً، وليس عندهم حلال أو حرام مثلنا. فالمقارنة هنا ظالمة، والتقليد هنا يورد الردى.

نريد أن نفتح كل الآفاق أمام الحلال؛ لأننا كلما أغلقنا باباً مباحاً، فتحنا على أنفسنا أبواباً هائلة من الآثام والعصيان.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ . .﴾

بعيداً عن الحذلقة الجوفاء، والمثالية الفارغة. وبعيداً عن الشعارات البراقة، والمظاهر الخلابة . . بعيداً عن كل هذا، تعالوا نزن ما وصلت إليه المرأة فى عالمنا الحاضر، بميزان شديد الحساسية، تميله أخف الحركات، وتؤثر فيه أدق الملاحظات.

ومن تمحيص القول أن المرأة فى عالمنا الجديد، قد لاقت من الخداع والمكر وسوء النية، ما لم تلقه فى عالم الجاهلية قبل مجيء الإسلام. فهناك كان الظلم واقعاً على المرأة بسبب الجهل، وقبح الأعراف والتقاليد. وهنا ـ وفى عصرنا الحديث ـ صار الظلم أشد وطئاً على المرأة؛ لتشربه بالمكر والخداع والمواراة والتكسب الذميم!

وقد عَالَنَ الغرب ـ على كر الأيام ومر الأزمان ـ حقوق المرأة، ووجوبَ مساواتها بالرجال، وبدا الأمر كأنه حرب شعواء على الرجل الظالم أهله، الكاتم على أنفاس شقائقه من النساء. وخاض كثير من أبناء العروبة والإسلام هذه الحرب، وأشعلوا أوارها ولهيبها، بقصد تارة، وعن جهل وتقليد واستمساك بأذيال الغرب . . تارات أخرى. ولم تضع الحرب أوزارها بعد. وطَفِقَ عدد من المصلحين يدافعون عن نظرة الإسلام للمرأة، ومدى حظوتها فى شعائره وشرائعه، فشرعوا أقلامهم يفلسفون مكانتها، ويدفعون التهم عن الإسلام فى ذلك، فصرنا فى موقع الدفاع، بدلاً من أن نكون فى موطن الدعوة والاعتزاز، وتفارط الأمر فى أيدينا، ورضينا بالمقاعد الخلفية من دنيا الناس وأفكارهم، واكتفينا بالتقليد، والتصفيق، والإعجاب!

قال الغرب: المرأة مثل الرجل سواء بسواء. قلنا لهم: كذبتم! فأين المرأة من ساحات الحكم والسياسة فى بلادكم؟! فكثير من دول الغرب لم تر حاكماً لها من الجنس الناعم، ولم تبصر فى عالم الاستعمار العسكرى قديماً، أو السياسى حديثاً، أو حتى الفكرى الجاد . . لم يبصروا ذوات الشعر الأشقر، وإن وجدوا بعضاً من النساء برعنَ فى مجالات السياسة والحكم، كان ذلك على سبيل الندرة، لا على سبيل الحكم والمنطق والواقع.

وكيف يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة؟! وكيف تتبوأ مقاليد الحكم من تتفجر عطفاً وليناً، أو من تتقلب لديها مصادر الأمور ومواردها، تشوبها قلة التحمل، وسرعة الأحكام؟!

وقال الغرب: أعطينا للمرأة حقوقاً ومجالات، لم تنلها فى حقبة من أحقاب تاريخها المديد. قلنا لهم: كذبتم! ففى أية المجالات عملت المرأة؟! نعم.. خرجت للعمل، وتركت بيتها، ونالت حقوقاً كثيرة؛ ولكنها حقوق الجسد العارى، والشهوة الهابطة، والنزوة الخليعة.. فالمرأة غدت سلعة رائجة فى مجال الإعلان والدعاية والفن و«السينما» فأصبحت «الأفلام» ـ المعروضة هنا وهناك، فى المشرق والمغرب على السواء ـ أكثر إقبالاً ورواجاً، حين تكون المرأة فيها أكثر جمالاً، وأقوى إغراءً.. ناهيك عن« بيوت الأزياء» ودنيا «الموضة» القائمة على المرأة، والمرأة الجميلة وحدها؛ لغرض هو معلوم من الجميع بالضرورة.

فأية حقوق نالت المرأة بهذا الخداع اللئيم، والمكر الذميم؟! وأية جريمة يزاولها الغرب فى حق المرأة أقبح من هذه الجريمة؟! وأى خبث ألأم من هذه الحبائل التى يلعبون بها على المرأة فى هذا العصر الحالك؟!.. لقد قذفوا بها فى مجالات العرى والجسد؛ فيما يُسمّى بالفن، والدعاية، وإعلانات التلفاز، ومكاتب الاستقبال، وبيوت الأزياء، حتى المجلات والصحائف، غدت بعيدة عن الكساد، طالما أنها قريبة من زينة المرأة وعُريها وفتنتها.. وضعوها فى كل هذا.. منظراً جسدياً دون اعتبار لإنسانيتها وكرامتها، عائبين عليها تربية الأجيال، واستقرار البيوتات، وإخراج الرجالات.

انظرى ـ أيتها المرأة ـ إلى المضيفات فى رحلات الطيران، وانظرى ـ كذلك ـ إلى قائدى الطائرات من الرجال.. لتَرَينَّ أيةَ مساواة يقصدون، وأية مجالات للمرأة يريدون، وأية خداع بحقوق المرَأة يَلعبون؟!

وانظرى ـ كذلك ـ إلى المدراء والرؤساء ورجال الأعمال.. وعلى مقربة منهم بنات جنسك، يعملن فى مجالات «السكرتارية»، لاهيات بتوزيع الابتسامات على الداخلين والداخلات، يُخرِجْنَ المرآة تارة، ويرفعنَ سماعة الهاتف تارات..

مشغولات بتصفيف شعورهن، ووضع الزينة على وجوههن. . فأية عملٍ خرجت من أجله المَرأة؟! وأية حقوق يرفعونها؟!

أما الإسلام فقد كرم المرأة، وصانها من كل ذلك، فجعل القرار فى البيت أصلاً. فيه تقوم بأجلِّ الأعمال، من تربية الأجيال، وتنشئتهم التنشئة الصحيحة. وهذه مهمة لا نَخَالها إلا ترفع من عزها ومجدها. ولو أدركت عظمة ما تقوم به من تربية داخل بيتها، ما استبدلت الذى هو أدنى بالذى هو خير. ولكنها تَخْرج لمجرد الخروج. . هكذا. . محاكاة للرجل، وإثبات للذات، وبرهنة على المساواة. فكأن الأمر فى أصله عناد ومكابرة. فخسرت المرأة بيتها وأولادها، وكسبت شعارات ما نراها إلا صفراء كاسفة، وكسبت أرضاً ما نراها إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، وكسبت ـ كذلك ـ أموالاً أضاعتها فى ألبسة الطويلِ والقصير، وفى وضع الأحمر والأبيض، فزاحمت الناس فى مواصلاتهم، وضايقت الرجال فى مكاتبهم، فقلّ العمل بسبب النظرات العابرة، وغير العابرة، وضاع الدين؛ بسبب الاختلاط، وعقد اللقاءات الغرامية، وارتفعت نسب البطالة بين الشبان، بعد أن خوت البيوت من النساء، وصار كل شيء صناعياً، حتى حليب الأطفال، وانتقلت البيوت إلى دور الحضانة؛ لتكون أمٌّ مكان أمّ، وتربيةٌ مكان تربية، فاختلطت الموازين، وتبدلت المقاييس، ولكنها المحاكاة لأساليب الغرب، وليتهم يقرؤون، فقد ورد فى تقرير نشرته صحيفة «الاقتصادية» نقلاً عن «ذى تايمز» البريطانية بتاريخ **1999/3/11**م أن معظم النساء الموظفات يفضلن العودة إلى المنزل «وتقول نسبة **84** فى المائة من النساء إنهن فقدن الرغبة الحقيقية فى العمل، ولم تعد لديهن أحلام وطموحات فى ذلك المجال. وتشعر سبع نساء من كل عشر أنهن لا يحصلن على أجر مكافيء للرجل، وست من كل عشر أنهن مجهدات فى العمل. وقالت نسبة غالبة إنهن يعملن بطاقة أكبر من الرجال؛ للحصول على نفس المزايا».

لقد كان الغرب على خطأ كبير، وكذلك من شاكلهم، حين أسقطوا من حساباتهم طبيعة المرأة وطبيعة الرجل. فقد أوجد سبحانه «العاطفة والرحمة والحنان» أصلاً فى المرأة، فناسَبَ ذلك تكوينها العضلى والجسدى، كما ناسب وظائفها التى من أجلها خُلقت. فلولا غلبة هذا الجانب فى تكوين المرأة، ما تحملت

أنثى آلام الحمل والوضع والرضاعة وتربية الأولاد، وهى راضية مطمئنة، وما انجذب الرجال إلى النساء، بأى حال من الأحوال.

وجعل سبحانه «التعقل والتروى والتحمل» أصلاً فى الرجل، فناسب ذلك تكوينه العضلى، كما ناسب وظائفه التى من أجلها خُلق. فالطبيعة هنا تختلف عن الطبيعة هناك، كما يشهد بذلك كل العقلاء، فكيف تتساوى الحقوق والأعمال؟!

وليس «التعقل والتروى» بأفضل من «الرحمة والحنان»، ولا يعنى ترجح أحدهما فى طرف فقدانه فى الطرف الآخر، ولكنه التوازن والتنوع، الذى به يتم التلاحم بين الذكر والأنثى، ولكنها الإرادة الإلهية التى ميّزت بينهما؛ ليكمل أحدهما الآخر. فالأمر أمر تكامل وتوازن، لا أمر نديّة وعناد.

وإن عابوا على المرأة ضعفها، فإن ضعفها هو أجمل شىء فيها. لا أقصد ضعف العقل، أو ضعف الروح، ولكن أقصد ضعف اللين والعطف والتسامح. فلولا هذا الضعف ما مال رجل إلى امرأة، ولولا قوة الرجل ـ لا أقصد قوة العقل أو الروح ـ ما انجذبت فتاةٌ إلى فتى!

إنهم لا يفهمون هذه المعادلة، ولا يدركون أبعادها. فلو شاء ربك لخلق المرأة مثل الرجل، أو الرجل مثل المرأة، ولجعل الكل سواء! فهل تكون عندئذ حياة؟! فأجمل ما فى الرجل قوته وخشونته، وأجمل ما فى المرأة عطفها وليونتها. فكان للقوة عملها: تكافحُ الشمس والصخر والجبال، وكان للعطف عمله: يُغذِّى به نسلُ الحياة، وصغَار الرجال. إن ذلك هو طرفا المعادلة، وإن ذلك هو ما أراده الدين للرجال والنساء على السواء. لا نقول كما قال عمر بن أبى ربيعة:

كُتبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

ولا نقول كما يقول المثل العربى القديم: «أبى يغزو، وأمى تُحَدِّثُ»، ولكن نقول: إن عمل المرأة فى بيتها لا يقل شأناً عن عمل الرجل خارج بيته، بل أحدهما يكمل الآخر.

والإسلام دين المرونة والكمال، فأباح للمرأة الخروج للضرورة، أو للتعلم

والتفقه، بل أوجب عليها بعضاً من المهن الحيوية، التى تخدم بها بنات جنسها، بل كان لها دور أثناء الحروب على عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام. كما أن عليها أن تتعلم الطب والتدريس؛ لتكفى بنات جنسها فى هذين المجالين الهامين، فلابد أن تكون هناك نفرة بين الطالبات؛ للتخصص فى هذين المجالين، على وجه الإلزام والوجوب.

ويظل أولئك المتشدقون المتظرفون، الرافعون لشعارات المساواة الرخيصة.. يظلون فى طغيانهم يعمهون، وعلى دين الغرب يسيرون ويقلدون.. فصاروا أبواقاً لهم، وآلة فى أيديهم.. متناسين قوله تعالى لنساء النبى، ونساء الأمة كذلك: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾[1].

(1) سورة الأحزاب آية 33.

﴿ .. لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾(1)

نزل به المسير حيث «مدين» . . ثم نظر وتدبر . . فالقوم حول البئر يتزاحمون ويصطرخون، يغدو بهم الصخبُ ويروح . . ثم نظر هنالك . . هنالك امرأتان تذودان، فأدرك خطأ القوم، وجلافة قلوبهم، وغياب المروءة عن حسهم . . ثم فكر . . فأخذته الأريحية والنخوة، ولم يستجب لنداء الراحة، بعد أن بَعُدتْ عليه الشُّقَّة، وبعد أن كابد فى رحلته الكروب والشدائد، وهو ـ بَعْدُ ـ غريب وحيد. ولكنما هو الشعور بالواجب، والإحساس بمواطن الشهامة والمروءة . . فنهض عجلانَ يستصوبُ الموقفَ الخاطىء، وتقدم سائلاً سؤالَ إنكار واستغراب: «ما خطبكما»؟! فأجابتا إجابة إحصاف وإدراك: «لا نَسْقى حتى يُصْدر الرعاء». . لن نزاحم هؤلاء المتكالبين على السقايةِ حتى يفرغوا. فالعفة لديهما قد عَافَتْ . . عَافَتْ الاختلاط والتزاحم، وعافت ـ كذلك ـ مُشاكلة الرجال ومجاراتهم . . ثم إن أبانا شيخ كبير، لا يقوى على السقاية . .

هنا أحس موسى ـ عليه السلام ـ أنه أمام امرأتين عظيمتين، فأسرع، وسقى لهما وسط دهشة السُقَاة . . فقد هابوه؛ هابوا فيه علائم النبوة، وصفات النبل والمروءة . . ثم تولى إلى الظل مناجياً ربه ذلك النجاء الحبيب: «رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير» . . بعده جاء الفرج، وتوالت البشريات، وانزاحت الملمات . . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء، وليس فى استحياء . . فهناك بين حرفى الجر فرق . . وفرق كبير!

هكذا سجل القرآن الكريم هذا المشهد الجليل؛ عبرة لأولى الألباب، وعظة للنساء . . كيف يكون خروجهن؟ وأين تَبْلغ بهن العفة والاحتشام؟ فليس الخروج ضربة لازب! بل هو ضرورة ملحة، وحاجة ماسة . . خروج استثناء من قاعدة؛ هى الإقرار فى البيوتات . . خروج لا اختلاط فيه ولا زحام، ولا فتنة فيه ولا إغراء . . خروج كله عفة وطهر واحتشام.

(1) سورة القصص آية 23.

ليت نساء العصر يقرأن القرآن، وليتهن يفقْهنَ الآيات البينات. . فقد غصَّتْ بهن الشوارع والطرقات، واكتظت بهن المكاتب والحافلات، تاركات البيوت وتربية الأجيال، على غير شيء يجنينه غير ضياع الأولاد، وإهمال حقوق الأسرة، وتشتُّت الشمل هنا وهناك. . فقامت فينا الرزيّة تلو الرزية، وتابعت البلايا البلايا، وغابت أمور كثيرة من العفة والتستر وراحة البال!

امتلأت الشوارع بالفتيات، كأنهن عارضات أزياء، يتقلبْنَ فى أردية الغرب، نافرات من رواء الإسلام العفيف. . مقتديات بكثير من نساء الفن، بعيدات من سيرة الصحابيات فى صدر الإسلام!

وليس كلهن كذلك. . فمن النساء والفتيات من يبعثن فى النفوس الأمل؛ بعظيم التزامهن، وطيب احتشامهن. . يبعدن عن مواطن الشبهات، ويدرأنَ عن أنفسهن الفتن والمنكرات، وينأيْنَ عن أماكن الزحام والاختلاط.

لقد جلب الاختلاط كثيراً من النظرات، وكثيراً من الكلمات الفارغة، فتعددت قصص الحب والغرام، وغضب كلُّ زوج على زوجه، فقلَّ الحبُّ فى البيوت، وكثر على قارعة الطريق، وفى مكاتب العمل، وقاعات الدروس. ودخل كلٌّ واحد فى مقارنات خاطئة، قد زيَّن الشيطان فيها نساء الخارج ورجاله، وقبَّحَ زوجات البيوت ورجالها، فكثرت النزاعات، وارتفعت الشكاوى والأصوات، وتفارط الأمر، وغدا وقت الخروج من البيت أحب إلى النفس من الجلوس فيه، فانقلبت الموازين، وساءت الأمور. . نسأل الله الستر والغفران. .

أيها النساء قلنَ: لا نخالط، ولا نزاحم حتى يُصدِر الرجال. . ثم قرن فى بيوتكن، واتقين الله!

﴿.. وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾

هذه الآية من سورة النساء تعد فصلاً هاماً من فصول العلاقة بين الرجل والمرأة. والآية بتمامها: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(1).

وقبل أن نتفيأ نسماتها الشذية، ونفحاتها الذكية، نعرج على بعض ما أورده ابن كثير حول هذه الآية:

* قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله تغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

* وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن شيخ من أهل مكة قال: نزلت هذه الآية في الرجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله عز وجل.

* وقال السدى في الآية: إن رجالاً قالوا: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء، كما لنا في السهام سهمان. وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا أجر مثل أجر الشهداء، فإنَّا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كُتب علينا القتال لقاتلنا. فأبى الله ذلك، ولكن قال لهم سلوني من فضلي، قال: ليس بعرض الدنيا. وقد روى عن قتادة نحو ذلك.

* وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ولا يتمنى الرجل فيقول ليت لو أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله.

* ثم أورد قولاً يجمع في سبب نزولها بين حديث أم سلمة وقول ابن عباس، وأن التمني المنهى عنه يكون في الأمور الدنيوية وكذا الدينية.

---

(1) سورة النساء آية 32.

ومن خلال هذه النصوص التى نقلناها يتبين لكل ذى عينين ذلك التنافس الشديد فى صدر الإسلام بين الرجال والنساء، ويتبين لنا كذلك دوافعه وبواعثه، ومنشؤه ومسبباته.

لم يكن الباعث إلى ذلك التنافس اعتقاد الطرفين أنهما فى الخلقة والتكوين سواء، وأن وظائف كل منهما فى هذه الدنيا متداخلة متشابكة. فقد كان هذا الجيل على دراية واسعة بطبيعة الرجل، وطبيعة المرأة، وأنهما يلتقيان فى شىء، ويفترقان فى أشياء أخرى.

ولم يكن الدافع إلى ذلك تحقيق مساواة بين الرجل والمرأة، ؛ كتلك التى ينادى بها المتحررون فى هذا العصر الذى تساقطت فيه الأوراق وقت الربيع. فهم كانوا حكماء أصلاء، لا يلهثون وراء فلسفة خرقاء، أو نظريات جوفاء. فالمساواة لا تتحقق فى مجال الوظائف والأعمال، لأنها ستكون ظالمة، لا تتناسب وطبيعة التكوين لكل منهما، وستكون مساواة لهوٍ ولعب، تعبر عن عناد صفيق، أو كبرياء فارغة، أو خواء نفسى بغيض.

ولكن تتحقق المساواة فى مجال الاهتمام والتقدير والإكرام. وقد حصلت المرأة فى ظل الإسلام على تقدير وإجلال، وتبجيل كذلك، لم تره فى غابات الحضارات الأخرى التى تدَّعى بُصْراً بالحقوق والحرية والمساواة.

ولم يكن المنشأ فى هذا التنافس الاعتراض على أحكام الدين. فهم قد أوتوا من الإيمان والتصديق، والتسليم واليقين، ما لم يُؤتاه كثير من أبناء الإسلام فى هذا العصر الشاك المريب.

ولم يكن السبب هو تذمر النساء من تفضيل الرجال فى بعض النواحى الدينية والدنيوية. فهنَّ قد نزل فيهن أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وأنها ناقصة عقل ودين؛ وهو نقصان خلقة وتكوين، وليس نقصان عيب ومذمة. إذ أكملها الله بعاطفة لا تستقيم الحياة دونها. فنقصان العقل أكمله تمامُ العاطفة، ونقصان العاطفة فى الرجل أكمله تمامُ العقل. ولو اتفقا لاختلفت موازين الحياة بأسرها، ولرُفعت

الرحمةُ من دنيا الناس، ولانْدَاحَتْ[1] فى مرابضها عناصرُ الشقاء والفناء، ولكان حداء القافلة لا يستقيم معه سير، ولا تنشط به حياة!

ولا نلتفت إلى أولئك الذين فضلوا جوانب العقل على جوانب العاطفة. فأنىَّ للعقل أن ينشط؟! وأنَّى للفكر أن يتدفق؟! إن لم ترافقه عاطفة يستمدها من قلب امرأة لا ينضب معين عطائه قط!

ولا أعتقد أن امرأة عاقلة تعيب على الإسلام وضوحه فى نقصان العقل والدين لديها؛ لأن ذلك راجع إلى التكوين ابتداءً، وراجع إلى ضرورة من ضرورات الحياة الأسرية والاجتماعية، كما أن هذا النقصان قد أمن لها حياة لا نراها شقية، بل سعيدة. فقد أبعدها عن معتركات الجدال والخصام ﴿**أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾[2]، وأبعدها كذلك عن ظلال السيوف، وجحيم القتال، وصرفها عن جلسات الفلاسفة، ومناظرات المتكلمين؛ لتتفرغ لأمور نراها أعظم وأجلّ، فتهب من عطفها وحنانها للإنسان فى أول حياته ما يعجز العقل الرزين عن وهبه وعطائه.

وهُنَّ قد أدركن أن الإسلام فرض الجهاد على الرجال دونهن. وفى الجهاد الشهادة، وما أدراك ما الشهداء؟! إنهم يدخلون الجنة بلا حساب أو عقاب!

إن المرأة بذلك الجسد الذى جَمَّله الله، وجعله فى أحسن صورة، لا يحق له أن ينزل ساحات القتال، فالمعركة التى تخوضها داخل بيتها لا ينتصر فيها إلا العظماء، ولن تشعر بعظمتها إلا داخل هذه المملكة العريقة.

كثير من النساء نجحن فى تدبير هذه المعركة الداخلية، وجاهدن حتى وصلن بأبنائهن إلى مصاف العظماء الأقوياء. وهناك من النساء من فشلن، وولين الأدبار.

إننا نخطئ كثيراً حين نحصر البطولة فى معارك النزال. إنها أجلُّ وأعظم حين تتصل بتربية الأجيال.

---

(1) انداح: انتشر.

(2) سورة الزخرف آية 18.

إن المرأة تخوض المعركة الأصيلة، والحقيقية كذلك . فهى التى تمد معارك الحياة الأخرى بأعظم الفرسان، وأشجع الأبطال . إنها المعين الذى يتدفق منه عطاءات البطولة والجهاد . فمن هذا الذى يفرغها من مهمتها الجليلة تلك؟! وينزل بها ميادين الكلام، أو ساحات القتال؛ من أجل شعارات لا تجنى من ورائها إلا السراب والخداع .

بيد أن أم سلمة قد أدخلت عنصراً جديداً يلفت الانتباه، يبدو أنه قد حاك فى صدور بعضهن؛ وهو نقصان الميراث .

غير أن المتدبر فى بواطن الأمور وظواهرها يدرك تماماً أن النصف فى الميراث عدل للنساء، والنصف كثير؛ لما وَجَبَ على الرجال من النفقة التى تتناسب وتكوين الجسم والعقل . فهم دائماً يعيلون وينفقون، سواء كانوا أزواجاً أو آباءً، أو حتى إخوة رجالاً .

إذاً ما الدافع وراء هذا التنافس الشديد فى صدر الإسلام بين الرجال والنساء؟ إنه دافع الرغبة فى الأجر، والإلحاح فى تحصيل الثواب وافياً دون نقصان .

لم يكن يشغل بال المرأة المسلمة الأولى ما يشغل بال الكثيرات فى هذا العصر المتأخر . فلم يكن يشغل بالها مساواة فارغة، أو تحرر أصلع . ولم يكن يشغل بالها نقصان عقل أو دين . ولم يكن فكرها منصرفاً إلى ملاحقة الرجل، فى سباقٍ زين مضماره شياطينُ الانحراف والفساد .

لقد كان يقض مضجعها شيء واحد . إنه الثواب والأجر . فلم تكن تحسد الرجل على شيء من الحقوق أو الواجبات، ولكن حسدته على أجر الشهادة، وعلى مواطن لا تطؤها قدم المرأة ينال من خلالها الحسنات تلو الحسنات، فنزلت الآيات تُطمئن الأنثى على مبدأ الثواب والعقاب **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾**(1) .

إلا أن القرآن قد أراح المرأة كثيراً، وأراح الرجل كذلك، حين طلب من الجميع

(1) سورة آل عمران آية 195 .

أن يتوجهوا إلى الله سبحانه، ويسألوه من فضله. فإن فضله واسع، لا حدود له، ولا قيود. فهو عليم بكل شىء، خبير بما خلق ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(1).

إنه أمر عظيم ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ يتناسب مع هذا التنافس، الذى قد تختلط أوراقه فى كثير من العصور، فغطى الفضل الإلهى ما قد نتصوره نقصاً أو عيباً أو هضماً.

وللجانب النفسى فى القرآن أهمية قصوى، فالمرء حس وروح وعاطفة، يتعلق فى كثير من أمور حياته بهذا الفيض الإلهى، ينهل منه ما يريح نفسه، ويعوض نقصه واختلاله.

إلا أن الجملة التقريرية الواردة قبل هذا الأمر أشد تناسباً، وأجمل اتساقاً: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فكان ذكر ﴿النَّصِيب﴾ متلائماً كل التلاؤم فى خضم هذا التنافس الشديد، وفى غمار التلهف على المزايا، والتشبث بالمكاسب والمغانم.

إن للرجال نصيباً، وللنساء نصيباً. قد يختلف نصيب كل منهما، ولكن لينهل الاثنان من فضل الله الذى لا يُحد ولا ينفد، وليرضَ كل من الذكر والأنثى بما كتب الله، وبما فرض، وبما خلق كذلك.

للرجل نصيب مما اكتسب، وللمرأة نصيب مما اكتسبت على وجه العموم دون تحديد. فلن يُبخس أحد كسْبَه، ولن يظلم أحد عنده سبحانه. والكسب هنا عام، لا نراه يختص بالحسنات أو السيئات وحسب، ولا بالميراث كما ذكر بعض المفسرين. إنه يختص بكل أنواع الكسب المادى والمعنوى. فالمرأة لها كيانها الخاص فى الإسلام؛ فهى التى تدير مالها الذى تكتسبه سواء من الميراث أو من غيره، وهى صاحبة التصرف فيه دون تدخل أحد كائناً ما كان، حتى ولو كان زوجها القيّم على شؤونها، الراعى لأمورها.

---

(1) سورة الملك آية 14.

إن الإسلام قد جعل للنساء نصيباً، ولم يكن لهن نصيب قبل الإسلام، ولا نرى لهن نصيباً فى حضارات الغرب الآن؛ إلا أنصبة المكر والخداع والمواراة.

لقد تنفست المرأة فى صدر الإسلام عبق الحرية، التى منحها إياها الإسلام. فهى هنا تسأل، وتستفسر، وتطالب، وتناقش، بعد أن كانت هملاً ترعى مع السوائب، وتورث كما يورث المتاع. ووقفت أم سلمة؛ لتسأل قائد الأمة، وكلها ثقة واطمئنان بذاتها وشخصيتها، وقد كانت فى الجاهلية لا تجرؤ على هذه الوقفة، أو مجرد التفكير فيما عرضته من استفسارات.

أعتقد جازماً أن المرأة قد عانت ظلماً فادحاً، لم يتجرعه مخلوق قط، ولم تتنفس الصعداء، ولم تشم رائحة الإجلال إلا فى ظل الإسلام. فالمجتمعات قديماً وحديثاً ظلت تحدد طريقها، وترسم خطواتها، والمرأة لا تستطيع أن تفعل شيئاً.

هناك مجتمعات لم تسمح للمرأة بالخروج طول حياتها إلا مرتين؛ الأولى عند انتقالها إلى بيت زوجها، والثانية عند تشييعها إلى قبرها. وهناك مجتمعات متبجحة غير حييّة جردتها من كل ثيابها، وجعلت منها جسداً يباع ويشترى.

انظر إلى حضارات الغرب كيف فعلت بالمرأة؟ وكيف سيّرتها فى الطرقات؟ وكيف صورتها فى وسائل الإعلام؟ وكيف جعلتها رخيصة لا تساوى شيئاً؟ ولكن الإسلام كان واقعياً؛ حين أبان للمرأة عن طبيعتها وتكوينها، وحدد لها وظائفها التى تناسب فطرتها، وصارحها بكل شىء، وأبعدها عن الميادين التى لا تناسب كرامتها وعزتها، وألفت نظرها إلى جوانب النقصان فيها؛ حتى تكون على بينة من أمرها، وحتى لا تقع فريسة للمتكالبين على تمزيقها وفنائها.

إن الإسلام هو الشرع الوحيد الذى جعل للمرأة نصيباً، وهو نصيب وافر، ونصيب يتسم بالواقعية والاتزان، ويتصف بالتقدير والإجلال، وجعل لها كسباً وحظاً، لا يشاركها فيه أحد من الخلق أجمعين.

لقد جاءت مقالة أم سلمة عفوية، وواعية كذلك، فنزلت الآية الكريمة تحتوى على نهى وأمر، وتقرير فى وسطها، وآخَر فى ختامها؛ ليدل على التناسق البديع، والترابط المحكم، وليتلاقى فى رحابها علم الله المطلق، وفضله الواسع، مع هذا

النصيب الذى نال منه الرجل والمرأة على حسب ما قدر الله سبحانه، وعلى حسب الاستعداد الفطرى، والتكوين الخلقى، ليتجاوز فضل الله كل الحدود، ولينهل منه كل كائن ما يستطيع دون نفاد أو نقصان ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾[1]

لا يحابى الإسلام أحداً، ولا يجامل فئة دون أخرى، ولست واجداً فى شرعه شططاً وجوراً، أو غبشاً والتباساً، بل هو كالضحى الرائق، أو القمر إذا اتسق واكتمل.

ومن نضوب الفكر، وضيق الأفق ظن الكثير أن الإسلام دين للرجال، ليس للنساء فيه ظل أو خيال، واشتطوا فى ذلك وجاروا، وجعلوا من المرأة مطية لكبريائهم، ومعبراً ينفشون فوقه ريش الانتفاخ الكاذب، وتاج الصولجان البغيض.

وللأسى ما زال بعض الملتزمين بتعاليم الدين ينظرون إلى المرأة نظرة إقلال وازدراء، متأثرين بظاهر النصوص، غير فاقهين للمقاصد الكبرى، أو مبادئ الشرع الحنيف.

لم يَقْدر هؤلاء أن يفرقوا بين أحكام تنسحب فى مدلولها على ملابسات فطرية، وحَالات خاصة، وبين المرأة كإنسان خلقه الله ابتداءً، وكرمه وأعلى شأنه، وجعل له عواطف وأحاسيس.

تراه يتعامل مع المرأة على أنها ناقصة عقل ودين، وأن شهادتها نصف شهادة الرجل، وكذا الميراث، وأنها خادمة البيت، لا تقاتل العدو، ولا تمتطى الجياد.

نظر إليها من هذه الزاوية دون غيرها، ورأى ذلك سبباً فى الغض[2] من قيمتها، والوضع من مكانتها، ولم يتدبر حكمة الشارع فى ذلك، فوقف أمام المرأة يتسنم أثباج الآكام[3]، وهى عنده دون الأقدام، لا يحسب وراء فوقه فوقاً. والمرأة عنده مهيضة الجناح، كسيرة وضيعة، ليس لها فى مجال التقدير تقدير، وليس لها من الاحترام والإجلال أى حظ أو نصيب.

---

(1) سورة النساء آية 11.
(2) الإقلال.
(3) أثباج الآكام: أعاليها.

صحيح أنها ناقصة عقل ودين، ولكنها كاملة العواطف، عبقرية الأحاسيس، تمد الحياة في مهدها بما لا يقدر على فعله عظماء الرجال، وتمنح من ودها ووفائها ما تطيب به الحياة، وتصفو دون كدر أو جفاء.

إنه نقص يقتضيه الحال، وتحتمه نواميس الحياة. نقصٌ دونه لا نشعر بالكمال، أو نفتخر بالتمام. نقص وسعه الودُّ والوفاء، ، وأجبره العطف والحنان، وزانه قلب ودود يهفو إليه الرجال أجمعون.

نقص ذو فضل على الرجال، لولاه ما عرف الفارس فروسيته، ولا الرجل شجاعته ورجولته، ولغدت الحياة ناقصة حقاً، تصب روافدها في بحر الخشونة والغلظة دون زينة أو رواء.

ولما كان ذلك كذلك لم تتفرغ لمواكبة أحداث الناس وشؤونهم؛ فترصد وترقب، وتشهد وتحكم، ولكن ترك ذلك للرجل، فهو كثير الخروج، كثير الاختلاط، خبير بالمواقف والمشاهد، عليم بالرجال والطبائع، فكانت شهادته أكمل، وحكمه أتم، وكان للمرأة نصف ذلك؛ مراعاة لواقعها، ومسايرة لعواطفها وأحاسيسها.

إلا أن الإسلام أراد للمرأة شيئاً آخر في الميراث. صحيح أنه أوجب لها النصف، بيد أنه كان بهذا النصف كريماً أيما كرم، سخياً كل السخاء!

ولا غرو في ذلك، فقد كان هذا الدين بمثابة الحصن الذي لجأت إليه المرأة؛ ذوداً عن حياضها من غارات المستغلين الماكرين، ودحراً للماجنين العابثين.

ورأى الإسلام مع صونها وإحصانها وجوب إكرامها، ولزوم إجلالها، فأنشأ أبواباً تحقق ذلك، ومنها باب الميراث!

ومن اليقين الذي لا ريب فيه أن المرأة على طول حياتها «مُنْفَق عليها»؛ فنفقتها لازمة وواجبة على الأب ثم الزوج، وليست المرأة واجدةً في يوم من الأيام من يتهرب من الإنفاق عليها، إلا على سبيل الندرة، لا على سبيل العموم والشمول.

والإسلام حين تُطبق شرائعه شكلاً ومضموناً، فإن المرأة تكون ضامنة الإنفاق

والرعاية، من يوم ميلادها إلى يوم رحيلها. وعلينا أن نعود قليلاً إلى جيل الصحابة، وكيف كانت المرأة ـ هناك ـ آمنة فى سربها، مالكة قوت يومها؟ لا تخشى الغد، ولا تحمل الهم، تطمئن إلى رعاية الرجل لها، وتثق فى إنفاقه دائماً، حتى فى تلك الحالات الاستثنائية التى تمر بها طول حياتها.

فالرجل كان هناك معروفاً بقوامته، مشهوراً له بإنفاقه ورعايته، لا يسمح للمرأة أن تزاول أعمالاً لا يقرها العقل أو الشرع، بل يتيح لها أن تبدع فى جوانب التربية والتنشئة، وأن تدير شؤون مملكتها دون صخب أو ضجيج. فقد تم توزيع الأدوار؛ فلها الإقرار فى البيوت، وله الخروج والانفاق، ولو تبدلت الأدوار لكان الخلل والظلم والإجحاف.

وليس الإسلام مسؤولاً عن هذه الحالة المقلوبة التى تقع فى بعض الأسر والمجتمعات؛ فاضطلعت المرأة بالعمل والإنفاق فى بعض الأحيان، فاصطرعت فى نفسها شؤون وشجون، واعتلجت فى قلبها هموم وكروب، وطوت صورها على حزن دفين، وتجرعت ـ بسبب هذا الامتزاج البغيض ـ ظلماً فادحاً، وجوراً وعدواناً.

ولكن نعود إلى حالة الإسلام الصافية، حيث يُنفق على المرأة من المهد إلى اللحد، فإن نصف الميراث يكون عدلاً، والنصف كثير، ولكنه كرم الإسلام وسخاؤه.

إن الإسلام تَسَلَّم المرأة من الجاهلية، وهى فى الرمق الأخير، فنفخ فيها من روحه، وأمدها بعطائه وإكرامه. فقد كانت تُورَّث كما يّورث المتاع، ويتحكم فى مصيرها القاصى والدانى، والصغير والكبير، لا تملك شيئاً ذا بال، ولا تقدر على إبداء الرأى، أو امتلاك المال.

لقد كانت فى الجاهلية دون الإنسان، قد يكون للخيل مكانة لدى العربى أعلى من مكانتها، ولم يكن وأدها فى صغرها إلا صورة واحدة من صور المهانة والإذلال.

أراد الإسلام أن يجعل لها شأناً، وأن يرفع لها ذكراً، وأن يعيد إليها شيئاً من الكرامة والتقدير.

إن المرأة حين تمتلك نصف الميراث، فإن ذلك يكون مكرمة وتبجيلاً. فهى لا تمتلكه مقابل إنفاق، ولا تمتلكه مقابل مسؤولية وأعباء. فالإنفاق على الرجل سواء امتلكت المرأة مالاً أو لم تمتلك، والمسؤولية منوطة به، والأعباء المادية جلّها[1] ودقّها[2] ملزمة منه، دون تدخل من المرأة أو مساعدة، إلا من باب الاستحباب والَندبة، لا من باب القهر والإلزام.

فالإسلام أراد أن يُشعر المرأة بعزتها ومكانتها، وأراد أن تكون شيئاً؛ فأوجب لها الصداق [3]حقاً خالصاً دون العالمين، وأوجب لها نصف الميراث، دون إلزام بنفقة أو أعباء.

أراد أن تمتلك؛ لتشعر بذاتها التى ضاعت وتغيبت، وبكرامتها التى تبعثرت وتدنست، فأسدى لها الدين بهذا النصف جميلاً، يتصوره من لا يتدبر بواطن الأمور هضماً ونقصاً، ويظنه الغافلون ظلماً للمرأة وجوراً، وهو فى الحقيقة تكريم وتقدير وتبجيل.

إن كثيراً من الباحثين ينظرون إلى قضية الميراث على أساس من الأرقام الحسابية، دون نظرة ثاقبة لمقاصد الشريعة، وجوهر الدين. ولو أنهم تخلوا عن نظرية «الواحد والنصف»، والتفتوا إلى إنفاق الرجل؛ سواء كان أباً أو زوجاً أو حتى أخاً، ورجعوا إلى كل مظنة من مظان البحث والتدقيق، وإلى كل حجة من حجج العقل والتفكير، وتفحصوا مطالب المرأة المادية، ومن هو الملزم بتحقيقها وتطبيقها؟ ولو أنهم تخلوا كذلك عن التأثر بالحضارة الغربية، وعن المساواة الجائرة والشعارات الزائفة التى ترفعها وتنادى بها.

لو أنهم فعلوا ذلك، وفقهوا جوهر الدين، ووضعوا فى اعتبارهم قوامة الرجل وإنفاقه.. لو فعلوا ذلك لوجدوا أن نصف الميراث للمرأة عدل، وهو كثير!

ليست القضية أن نعطى هذا مثل ما نعطى ذاك، أو نقسم بالسوية دون اعتبار

---

(1) كبيرها.
(2) صغيرها.
(3) المهر.

لواقع أو مسؤوليات . فقد يكون التساوى أحياناً ظلماً ، وقد يكون النقصان نصفة وعدلاً .

إنك واجد الواقعية فى الإسلام ، وفى الإسلام وحده . فهو لا يَعْتدّ بالشعارات الفارغة ، ولا بالكليات الجامدة ، ولكنه يضع الموازين القسط فى الدنيا والآخرة . فلا تجده آمراً الرجل بالقوامة والانفاق ، وفى الوقت نفسه يساوى بينه وبين المرأة فى الميراث . هنا يكون الظلم عينه ، والجور نفسه .

ولو أنه منح الرجل كل الميراث ما كان ملاماً ؛ لأنه ضمن لها الإنفاق من يوم ولادتها إلى يوم تبلغ الروح الحلقوم . ولكنه أراد تكريم المرأة ، وإعزازها ، وأراد أن تمتلك وتشبع رغائبها ، فحكم لها بالنصف ، وحذر من أكله وهضمه ، ونزلت الآيات توضح وتفصل دون أن تترك مجالاً للتأويل ، بل كانت واضحة كل الوضوح .

وحين نقول إن «النصف» بمثابة المكرمة للمرأة ، فإن ذلك لا يقلل من فرضيته ووجوبه ، فالمراد مكرمة المغزى لا مكرمة المقدار . وقد منحها الله للأنثى ، فلا ينبغى لأحد الغضّ من شأنها ، أو النقص من قدرها .

وحين نقول إن «النصف» كثير ، لا نقصد كثرة المقدار كذلك . فالمقدار قد حدده القرآن دون لبس وتأويل ، بل نقصد كثرة المحتوى والمضمون ، ونقصد كذلك توفيته وبركته وكفايته .

كما أنه كثير ذو قيمة ؛ لأنه أعاد للمرأة شيئاً من اعتبارها وكرامتها ، دون إنفاق ملزم ، بل تمنح منه ـ إن شاءت ـ على سبيل الهبة والامتنان ؛ لتشعر بتحقيق الذات ، وتأصيل المكانة .

وهنا يتبين لنا سخافة الذين يغضون من قيمة هذا «النصف» ويعتبرونه إقلالاً وإجحافاً ، متأثرين فى ذلك بالحرية الصلعاء التى ينادى بها اللاهون الغافلون .

ولهذا «النصف» حكمة قد تعزب عن فطنة البعض ، فهو عند امتلاك المرأة إياه ، يمنحها الفرصة أن تشارك الزوج فى أعبائه ؛ مشاركة امتنان واستحباب ، ، لا قهر

فيها ولا وجوب. وحينئذ تشعر المرأة بمكانتها داخل بيتها، وتعتز بإسهامها وعطائها، وتفتخر فى ذات نفسها بمقاصد هذا الدين الحكيم.

إن الإسلام قصد من وراء هذا «النصف» أن يكون للمرأة فى قلب زوجها تقدير أكبر، واحترام متعدد، فتصير لديه ذا مكانة، فلا يقع عليها ظلم، ولا تشعر بالتهميش والإهمال، بل يتسلل إلى قلبها كثير من العزة والكرامة.

ولقد كان ميراث المرأة فى أغلب الأحيان مثار طمع أو إهدار، فيؤكل فى بطون الوارثين من الذكور، أو تُعطى منه الأنثى فتاتاً على سبيل التطييب. وقليل من الناس من يلتزم أنصبة الميراث، فيراعى ما شرعه الدين، ويطبق ما قرره الشرع الحكيم.

ما زال لميراث المرأة مغازى متعددة، وحكم متنوعة، تدل على واقعية هذا الدين العظيم، واتصافه بالمثالية والاتزان؛ لأنه الدين الخاتم الذى أنزله رب العالمين.

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾(1)

لا يطارد الإسلام المحبين، ولا يصادر بواعث الحب والغرام، ولا يجفف منابع الود والاشتياق، ولكنه - كعادته فى كل شأن من شؤون التشريع - يهذب الشىء المباح؛ حتى لا ينفلت الزمام، ويقع المرء فى الحرام والهلاك. فهو دائماً يحذر من الراعى الذى يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه وينداح.

فهو لا يرضى من قيس بن الملوح جنونه بليلى، ولا يقبل من ابن أبى ربيعة تسكعه ومجونه. فالحب فى الإسلام يكون دافعاً إلى النجاح والإعمار، ولا يكون رافداً يصب فى بحر القعود والافتتان، ولا يكون نبعاً يتفجر منه الانحطاط والانحلال.

إن الإسلام يرضى من الحب صفائه، ويقبل من الغرام اعتداله، ويبيح من العشق اتزانه. وهذه حدود رسمها للمحبين، ومعالم وضعها على درب العاشقين؛ حتى يحمى «الوسطية»، التى هى أصل من أصول تشريعاته، من غزوات الفالتين، وغارات الماجنين.

بيد أن الإسلام - فى الوقت ذاته - لا يقر بذلك الحب الذى لا يقترن بالوفاء، فهما صنوان متلازمان، يدوم بهما الحب، وينبض بالتجدد والعطاء.

والحب فى الإسلام يختلف عن الحب فى غيره من الشرائع والأديان. فهو حب يتسم بالإيجابية، ويتحلى بالالتزام. فليس الحب غاية يتوقف عندها المرء طويلاً، سادراً شارداً؛ بل هو وسيلة تقوده إلى الحلال؛ تقوده إلى الزواج، ذلك الرباط المقدس الذى يبيحه الإسلام.

ارتبط فى أذهان الكثير أن يمارسوا الحب خارج البيوتات، وأن ينسجوا خيوط العشق، وطرائق الغرام، بعيداً عن الزوجة الحلال، من باب أن الممنوعات

---

(1) سورة يوسف آية 30.

مرغوبات. فتراه ودوداً أليفاً، لا يضن بالابتسامات، ولا يبخل بالأوقات، وهو لزوجته فارك باغض، كاره نافر، يخلق فى بيته مواقف الجدال والخصام، ويسكب فى أرجائه سيل الفرقة والهجران، وعند خروجه يطوى بساط الوحشة، وينشر أسباب الأنس والاختلاط، يتقرب من البعيد، ويتذلل إلى الغريب، قد زين له الشيطان المحظور، فرآه من بعيد زاهياً رابياً، وهو فى الأصل شبح رعيب، وخواء مرير، وذل وتباب!

إن الزوجة التى فى البيت يجب أن يُصْرَف إليها الحب دون نقصان؛ حتى لا نوصم بالغش والخداع، أو تلصق بنا معرةُ الظلم والإجحاد.

إن العلاقة الزوجية التى لا تتصف بالحب، ولا تتسم بالود، تجمع كثيراً من المداهنة والمكر والمراءاة، وتجمع كذلك بين التملق والنفاق، وتجنح فى بعض الأحايين إلى الخيانة والشقاق.

حاول أن تخاطب قلب زوجتك، وحاول كذلك أن تخطب ودها، وابحث عن وسائل التجديد والتشوق، واصنع مواقف القرب والصفاء. وقبل هذه المحاولة خلِّصْ نيتك من الشوائب العالقة، وطهِّرْ قصدك من الأحكام السابقة، واجعل بينك وبين روحها سبباً متيناً، ووصلاً مبيناً، تظفر بود لا ينقطع، وعطاء لا ينفد، واشتياق لا يَخْلق[1] على مر الزمن، وعيش يحسدك عليه شعراء الغزل، ومجانين الهوى.

إننا نقدر - لو توفرت لدينا النية الصادقة - أن نجعل حياتنا الزوجية هنيئة مريئة.. لو خاطبنا أشياء فى ذواتنا وأرواحنا، واستدعينا المشاعر الدفينة، والأحاسيس المرهفة، ورسمنا لعواطفنا موقعاً عند شغاف القلوب!

ليس شرطاً أن نحب المظهر الجميل، ولكن من المحتم أننا نحب الروح الأخّاذة، والذات الرائقة الخلابة. هناك من الأزواج من لديه زوجة مليحة، جميلة وضيئة، ولكنها خاوية المشاعر، جامدة العواطف، غليظة الكلام، صعيبة بغيضة،

---

(1) يخلق: يبلى.

لا تفهم شيئاً من لغة القلوب، ولا تفقه أمراً من عالم الوجدان. قد فُتنت بصورتها الظاهرة، وتعالت بمظهرها الخادع، واهتمت بزينة الشكل دون زينة القلوب، ولم تضف إلى طلاوتها رهافة أو شعور، فتنافرت تبعاً لذلك القلوب، وحُق لها أن تتنافر، وحُق لها أن تتجافى وتتباعد.

ومن صفوة القول أن صفاء الروح، وشفافية الذات، وقوة الأسر.. تنبع من الإيمان. فلا أخال[1] العاصى الجاحد لنعم خالقه يهب مشاعر صادقة، أو يمنح أحاسيس مرهفة. قد يهب، وقد يمنح، ولكنه عطاء الوقت، وهبة اللحظة. أما حب المؤمنين فتراه باقياً متجدداً؛ ذلك أن الإيمان بالله يرفد[2] الحَب - بكل أنواعه المباحة - بزاد لا ينفد، ومعين لا ينضب.

انظر إلى رابعة العدوية، حين اتجهت إلى الإيمان بالله، وحين صرفت حبها كله لله، دون أن تبقى منه شيئاً، تقول:

فليتك تحـــلو والحياةُ مريرةٌ	**وليتك ترضَى والأنامُ غِضَابُ**
وليتَ الذى بينى وبينك عامر	**وبينى وبين العالمـين خـــرابُ**
إذا صَحَّ منك الودُ فالكلُ هينٌ	**وكلُّ الذى فوقَ الترابِ ترابُ**

إلا أن كثيراً من الملتزمين يرون فى الحب منقصة ومذمة، ويرون فيه ضعة ومذلة. وهذا خطأ جسيم، وفهم خاطئ. فتراه لا يتودد إلى زوجته، ولا يعرف للغزل سبيلاً، ولا للمداعبة طريقاً. ولو نظر إلى حياة الرسول - ﷺ - ورأى حبه الشديد لعائشة، وكيف كان يداعبها ويلاطفها؟ رغم الفارق الكبير بينهما فى السن، ورغم مكانة الرسول، وعلو شأنه. لقد كان حباً صريحاً وواضحاً، وخالصاً كل الإخلاص، ووضيئاً كل الوضاءة.

لقد كان - ﷺ - يحث بعض صحابته على الزواج بالأبكار؛ من أجل المداعبة والملاعبة والملاطفة، وقد كان فى ذلك صريحاً وواضحاً كذلك.

---

(1) أظن.
(2) يمد.

ليس الحب نافلة، وليس عيباً أو مذمة؛ بل هو فطرة من التى فطر الله الناس عليها، وهو ضرورة من ضرورات الحياة، يجب أن يعلم ذلك الصالحون والعصاة.

ولا نعنى بالحب ما يمارسه كثير من الشباب اليوم، ففيه من الشطط والمعابة ما يجعله لهواً ولعباً. فلا ترى له هدفاً، ولا تتلمس له ضوابط ومعايير؛ بل تراه خافياً مستتراً، أو بارزاً متبجحاً، يلتقى مع السراب فى كثير من الحالات.

والحب حين يكون ضرورة، يكون مشروطاً كذلك بشروط الاتزان والاعتدال، ومنصرفاً إلى مواطن الحلال، بعيداً عن مرابض الفساد، ومراتع الانحلال.

إن الحب ضرورة بين الزوج وزوجه؛ لأنه حين يقوم، تسقط بقيامه كثير من العيوب والأخطاء، وكثير من العثرات والزلات، وكثير من العقبات والصعوبات. إنه يجعل من البيوت أمناً وسكينة، ويجعل من الحياة راحة وطمأنينة. يبعد عنها ظلال الشحناء والبغضاء، ويمحو من ساحاتها الاختلاف والخصومات. إنه ضرورة هامة من ضرورات الزواج.

ليس صحيحاً أن يكتفى الزوجان المؤمنان بقوة التدين، وشدة الالتزام، بل يجب أن يكون بينهما كثير من الحب، وكثير من التلطف وطيب الكلام. كم من الأزواج المتمسكين بدينهم غير سعداء؛ لأنهم لم يفكروا يوماً واحداً فى تقارب القلوب، وتواد المشاعر، ورهافة الأحاسيس، واكتفوا بالتزامهم، ولم يعلموا أن من الالتزام بالدين الحب الخالص بين الأزواج، ولهم فى رسول الله القدوة والأسوة.

إن الإسلام فيه وقت للترويح، وفيه وقت للملاطفة، وقد عَدَّ ذلك حقاً لا باطلاً، فقد روى أحمد وأصحاب السنن قول الرسول - ﷺ -: **«كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل، إلا ثلاثاً: رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق»**.

إن من التنطع أن يجافى الزوج زوجته، ولكن من الرفق أن يتودد إليها، فليس

عيباً، وليس نقصاً في الرجولة، أن يدلي إلى زوجته بحديث فيه شيء من التحبب والمداعبة.

ولماذا يكون الشغفُ والولَهُ عند العصاة، ولا يكون عند الطائعين في الحلال؟! وقد ذكر القرآن شغف امرأة العزيز ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[1]، ولكن يوسف عليه السلام أبى طريق العصاة. بيد أننا أولى بهذا الشغف، إن كان متزناً، وفي الحلال. فالحب يعطي للحياة الزوجية طعماً آخر، لا يتذوقه إلا المخلصون الأوفياء.

(1) سورة يوسف آية 30.

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾

وبعد أن تولى إلى الظل، وبعد أن ناجى ربه، جاءته إحداهما تمشى على استحياء، تبلغه دعوة أبيها، ليجزيه أجر ما سقى لهما.

وقدم موسى عليه السلام، وقص عليه القصص، فطمأنه، وهدأ من روعه. وهنا تأتى هذه اللفتة من إحدى ابنتيه: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾(1).

يا أبت استأجره.. يسقى أغنامنا، ويتولى أمرها، ويرعى شؤونها.

يا أبت استأجره.. يكفينا مؤونة الغدوة والروحة، ويرفع عنا همَّ المزاحمة، وسوء أخلاق الرعاء.

يا أبت استأجره.. فإن فعلت تكون استأجرت قوياً أميناً.. يذود عنا، ونأمنه على أحوالنا.

هنا يلحظ الرجل الصالح ما تقصد، ويستشرف ما تريد، ويتملى المشهد المعروض أمامه بروية واتئاد.. فيبدأ بالمصارحة والمكاشفة دون مكابرة أو تحفظ مقيت، ويعرض الأمر على موسى من آخره دون تلعثم، ودون لف ودوران:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾(2).

صورة أخرى من صور القرآن الوضيئة، وهى تعرض مشهد من مشاهد أسرة صالحة..

الأب قد ربى ابنتيه على الحشمة وعدم الابتذال، وعلى العفة وعدم مزاحمة الرجال، وعلى الحياء، وما أدراك ما الحياء؟!

والبنت تعرف طريقها، وتَفْقَهُ دينها.. فهى عفيفة حيية، لا تخالط الرجال، ولا تسقى حتى يُصدر الرعاء.. تقوم بالواجب دون تبذل أو سفور.. واثقة من

---

(1) سورة القصص آية 26.

(2) سورة القصص آية 27.

نفسها، بصيرة بالصالحين من الرجال . . لا ترى فى التلميح بأساً، ولا فى التعريض مساً وتجريحاً.

والرجل المطلوب قوى أمين . . صفتان تفترقان كثيراً فى الرجال؛ فالقوى قليل الأمانة غالباً، والأمين ضعيف الحيلة كذلك، ولكنهما قد اجتمعا فى موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[1].

هذا مثال من الأمثلة التى يتم فيها خطوات الزواج دون تكلف أو عناء، ودون غموض أو ملابسات . . الأب يختار لإحدى ابنتيه رجلاً قوياً أميناً، ويعرض عليه الأمر مكاشفة، لا يرى فى ذلك غضاً من قيمته، ولا نقصاً من مكانته؛ بل ذلك هو الصواب عينه، وهو الكمال ذاته.

نتحرج كثيراً حين نختار لبناتنا، ونعد ذلك نقصاناً وتقليلاً، ولكننا نخسر كثيراً حين نزج بإحداهن إلى رجل سيىء الأخلاق، حاد الطباع، خليط الصفات.

ليس عيباً أن يخطب الرجل لابنته، أو أن تلمح هى نفسها بذلك، ولكن العيب أن تتزوج رجلاً لا ترغبه، ولا تأنس له، ولا تطمئن إلى الحياة معه . . فتزداد الهوة بينها وبينه، ويتآزر على حياتها عواملُ الضيق والنفور، ويغيب عنها الود، ويحل البعد والجفاء، ويستقل الصفاءُ وراحةُ البال، ويحط الكدرُ والاكتئاب، وترزح الفتاة تحت وطأة الضغوط النفسية، والصراعات الأسرية، وتروح وتغدو فى بؤس من أمرها . . لا تحس للزواج طعماً، ولا للحياة هدوءاً واستقراراً.

والفتاة بطبعها لينة الجانب، مهيضة الجناح، تميل إلى الخجل دائماً، وتجنح إلى الحياء، وتفتقد الحيلة والتدبير، فلا تزال فى حاجة إلى من ينور بصيرتها، ويرشد حائرَها، ويلم شاردَها . . ولا تزال كذلك فى حاجة إلى بيان وتبيين، ونصح وتوجيه، وإلى رفع الغشاوة عن عينيها، وإزالة اللبس عن خاطرها . . بيد أن وليها هو القادر على فعل ذلك، إذا كان نافذ البصيرة، قوى الإرادة، فاقهاً لأحكام الدين؛ لأنه يقع فى أمر الزواج من الخداع والتدليس ما لا يعرف عقباه إلا الله سبحانه!

(1) سورة القصص آية26.

كم من خاطب تراه عريض المنكبين، مفتول الشارب، جهير الصوت، يعجبك منظره ويسوؤك مخَبره.

وكم من خاطب تبصره وقد حسن ملبسه، وطاب مظهره، يعطيك من فمه حلاوة، ومن الكلام سحراً وبياناً، ولكنه السم فى العسل!

وكم من خاطب تتملاه ذا حسب ونسب، يدفعه مجد تليد، وينفخه مال وجاه، ولكنه غليظ الجانب، بغيض العشرة، كريه الطبع، ليس له فى العير ولا النفير!

وقد أعجبنى هذا الشاعر حين نفر الخليفة الأموى من صورته وهيئته، فأنشده أبياتاً يقول فيها:

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه ... وفى أثوابه أسد هصورُ

ويُعجبك الطريرُ إذا تراه ... فيُخلف ظنك الرجلُ الطريرُ

بغاث الطير أطولها رقاباً ... ولم تَطُل البزاة ولا الصقورُ

ضعاف الأسْد أكثرها زئيراً ... وأصرمها اللواتى لا تزيرُ

وقد عَظُمَ البعيرُ بغير لبّ ... فلم يَسْتغنِ بالعظم البعيرُ

يقوده الصبى بكل أرضٍ ... وينحره على التُّرب الصغيرُ

آباء كثيرون يطلبون فى الخاطب المظاهر، ويلهثون وراء المال والجاه، ويسقطون من حساباتهم جانب الخلق والدين، ولكنهم يندمون بعد ذلك لا محالة.

وبعضهم يجعل من ابنته معبراً إلى تزويق مكانته، وتحسين حالته، ونيل المكاسب والمغانم.. فيختار من الخُطّاب من يحقق له ذلك، وتقع ابنته ضحية لهذه الأنانية البغيضة، ولهذا الظلم الفاحش.

كم من فتاة تتقلب فى العذاب ليل نهار.. غدا البيت سجناً، والزواج رعباً، والحياة جحيماً؛ بسبب سوء الاختيار.

وكم من فتاة تلقت من الشتم والسباب، والضرب والإعتداء.. ما كانت فى غنى عنه لو أحسن وليها الاختيار.

وكم من فتاة بكت وذرفت الدموع، وتجرعت الويل والثبور؛ لأنها جرت وراء عرض زائل، أو مظهر خادع.

وكم من فتاة كانت شريفة عزيزة فى أصلها، ثم صارت وضيعة ذليلة فى بيت زوجها، لا كيان لها ولا اعتبار؛ لأنها رضيت بالمال والجاه دون الخلق والدين.

وكم يكون الرجل ظالماً حين يزوّج ابنته إلى فاسق أو عابث أو لاه.. يكون آنئذ قد قطع رحمه، وأهان فلذة كبده، وفرط فى كريمته، وحمل وزرها إلى يوم الدين.

إنها مسؤولية ضخمة، وأمانة ثقيلة، تحتاج إلى وقفة من الآباء، وتحتاج كذلك إلى وعى وتدقيق وإمعان. فليس الزواج لهواً، بل هو ميثاق غليظ، لا ينفك إلا بالموت أو الطلاق.

على الأب أن يبحث عن صاحب الخلق والدين، فهو المرشح الوحيد، الذى تثق فى أمانته، وتضمن نجاحه وفلاحه.. فهو إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها.

وقد أكد الرسول ـ ﷺ ـ على ذلك وشدَّد، فقال فى الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى حاتم المزنى: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**» قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ـ ثلاث مرات ـ**».

وليس من العيب أن يبحث الرجل عن صاحب الخلق والدين، وأن يطلبه لابنته، فقد فعل ذلك الصحابة والتابعون.. ولكننا فى كثير من الأحيان نضخم من ذاتنا، وننفخ فى كياننا، ونحيط أنفسنا بهالة من الأنفة والكبرياء، ما يضيع علينا تحقيق السعادة لبناتنا إلى الأبد.

قد تتحقق هذه السعادة بلفتة عابرة، أو كلمة ذات مغزى، أو دعوة مقصودة، أو تلميح عفيف، أو حتى تصريح معلن إلى أولئك الذين نرضاهم أزواجاً لبناتنا.

إننا نخسر كثيراً حين نلتف حول أنفسنا، غافلين مصلحة بناتنا، فيأخذنا الكبر والعنجهية، ونفوت عليهن فرصاً، لو أتيحت لهن لعشنَ فى سعادة دائمة، وعيش رغيد.

كم من فتاة عاقلة كسبت خيراً كثيراً، حين نظرت إلى الخاطب لها، ففضلت دينه وخلقه، واطمأنت إلى صفاته وطباعه، وتوسمت فيه دلائل الشهامة، ومخايل

المروءة، ومظانّ الخير والصلاح، وغضت الطرف عن فقره أو غناه، وعن حسبه ونسبه، وعن صورته ومظهره.

ولكن من تمحيص القول أن تنظر الفتاة إلى المظهر قليلاً، حتى تحدث الألفة، وتنشأ المودة، ولكنه بمثابة النافلة بعد الصلوات المكتوبة.

ومن عدل الإسلام وإنصافه أنه أوكل إليها أمر القبول أو الرفض، فأوجب على وليها استئذانها، وأخذ رأيها، والتأكد من رضاها. واعتبر عقد النكاح باطلاً إن تجاوز قبولها وإقرارها.

والرسول فى وجوب الإستئذان واضح أشد الوضوح، فقد وردت الأحاديث فى ذلك كثيرة ومتعددة.

وعلى الفتاة العاقلة أن تتريث، وأن تستأنس برأى وليها، فإن رأت جنوحاً وهوى، فعليها أن تستمسك برأيها، وتصر على موقفها، وأن تتصف فى مثل هذه المواقف بالحزم والحسم؛ فهى التى ستعاشره، وهى التى ستذوق خيره وشره، وليس لأحد أن يكرهها أو يجبرها، ولو كان أباها!

وقد أعجبنى تصرف هذه المرأة فى صدر الإسلام، حين أرادت أن تعلم النساء درساً هاماً، فماذا فعلت؟!

فقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «جاءت فتاة إلى رسول الله - ﷺ - فقالت: إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته.

قال: فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أُعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء».

هكذا علّم الإسلام المرأة، وأبصرها بشؤون دينها ودنياها، وجعل لها كلمة ورأياً، وصرف أمر الزواج إليها دون تدخل من أحد، إلا على سبيل التوجيه والإرشاد، وجعل العقد منوطاً باستئذانها ورضاها.

ورأينا هذه الفتاة التى أرادت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شىء.

لقد أنطقها الإسلام، وأعاد لها اعتبارها ومكانتها، ومنحها عزة وكرامة، بعد أن كانت نسياً منسياً!

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾

يظل الرجل يكد ويتعب، ويشقى ويجهد، حتى إذا اطمأن إلى مسكن يرضاه، ومال يعينه على أمور دنياه . . وجد نفسه يخطو؛ طارقاً باب امرأة قد أحبها واصطفاها، فيطلب يدها، ويقدّم لها صداقاً[1]، لا يقوم النكاح إلا به، فهو حق أوجبه الإسلام على الزوج، تقبضه المرأة خالصاً لها دون الناس أجمعين، ليس لأحد ـ ولو أباها ـ أن يأخذ منه شيئاً إلا إذا رضيت وأجازت.

هذه صورة واحدة من صور عدة، أراد الإسلام أن يكرم فيها المرأة، فتمتلك مهرها مقابل قوامة الرجل، فتطيب نفساً، وتعلو شأناً، ويقام لها وزن بعد أن خف وضاع!

فالمرأة ليست متاعاً يضمه الرجل إلى أثاث بيته؛ بل هي كائن خلقه الله وكرَّمه، ومنحه من الحقوق ما يُعلي قدره، ويرفع شأنه . . فتنتقل إلى بيت زوجها، بعد أن بذل من أجلها كل غال وثمين، ووهب من طيب ماله ما جمعه بجهد جهيد، قد لفحه حر الصيف، وقر[2] الشتاء، وهي كاللؤلؤ المكنون، مصونة في بيتها، مُكرمة في نفسها، يشتد البحث عنها، ويُرجى الاقتران بها، حتى إذا غدت زوجته صانها، وحافظ عليها، فهي من ذاته، قد أكملته، وأتمت عليه دينه وخلقه.

هكذا أراد الإسلام أن يكون لها في قلب الرجل شأن أي شأن، حتى يتحقق كثير من التوازن والاعتدال بين ركني الأسرة، على أساس من التقدير والإحتفاء.

ووقف الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ على المنبر يوماً، وأحب أن يضع حداً للمهور التي علا مقدارها، ولكن امرأة حصيفة قد اعترضته، وذكَّرته بقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾[3]، فرجع عمر، وأقَّر بصواب رأيها.

---

(1) مهراً.

(2) برد.

(3) سورة النساء آية 20.

وعليك أن تطلق الخيال مع سخاء هذا التعبير القرآنى البليغ ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾، ففيه اعتناء بالمرأة شديد، واحتفاء بها عظيم؛ حين يُدفع لها صداق يبلغ مداه قنطاراً، وما أدراك ما مداه؛ حيث السعة والعطاء الوافر!

ولكن المرأة تستحق هذه السعة، ويليق بها ذاك السخاء، فلا ضير أن يزيد الرجل المقتدر فى المهر ما شاء له أن يزيد، وأن يهب للمرأة التى يرغب نكاحها خالص ماله، وطيب ثرائه.. تمتلكه فتعتز وتقوى، وتعلو وتزهو، وتعيش حياتها وهى تشعر بعزتها وكرامتها؛ لذا تدخلت المرأة حين أراد عمر أن يحدَّ من مقادير المهور، وذكرته بالقنطار الذى أباحه القرآن صداقاً دون تحديد أو تضييق!

صحيح أن الإسلام يحث على الاعتدال فى المهور؛ من أجل تيسير النكاح على الراغبين فيه، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان، فتراه ينفر من هذا الذى كلف نفسه ما لا يطيق، وأعمت عينيه مظاهرُ التباهى والإزدهاء..

فهو دين التيسير والتخفيف، ولكنه فى ذات الوقت لا يمنع مَنْ وسعت ثروته، وكثر ماله، أن يقدم صداقاً يبلغ مداه قنطاراً، فله أن يزيد فى المهر ما شاء له أن يزيد دون حرج أو خطيئة، ودون عتب أو ملامة، طالما أن هذا القنطار الذى قدمه للمرأة لا يرهقه ولا يعضله، فالمرأة تستحق كل تبجيل وتقدير، فلا يليق بذى مال أن يبخل بماله على مَنْ ستكون زوجته وأهله!

بيد أن مغزى الصداق يعلو كثيراً على الجانب المادى، ويظل رمزاً من رموز إكرام المرأة وتقديرها، مهما كان قليلاً، ولو خاتماً من حديد، ففى هذا القليل بركة ورحمة، خصوصاً حين يكون الرجل فقيراً يريد العفاف!

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

لم أرَ آية فى القرآن أنصفت النساء، ووقفت معهن وقوفاً سخياً، مثل هذه الآية من سورة النساء.

لقد كانت أشد صرامة مع الرجال، وأقسى ملاماً، وأغلظ عتاباً مما يحدث من البعض منهم.

وتتملى فى كلماتها لوناً من الإتساق عجيباً، ولوناً من المصارحة والمكاشفة ينم عن واقعية واتزان، وترتسم فيها كذلك خيوط من علم النفس، ودروب الذات.

يقول الله ـ سبحانه ـ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾**(1).

ولعل نقطة البداءة فى توجيهات القرآن تكون غالباً مع الذين آمنوا؛ فهم الطائفة الوسطى فى المجتمع الربانى، الذين يمثلون واقع الدين ووسطيته، ويمثلون كذلك النموذج المثالى الذى يريده الله لهذه الأمة، فإليهم يتطلع الذين أسلموا، ومنهم ينبثق الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وأراد الله ـ سبحانه ـ أن يرفع عن كاهل النساء لوناً من الظلم والعدوان، وشكلاً من أشكال العنت والتضييق، يزاوله بعض الرجال: **﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ..﴾**.

وكلمة **﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ﴾** تتلمس من خلالها شيئاً من العتاب والتأنيب، وكثيراً من الدهشة والاستنكار، وكأن هذا الفعل شنيع كل الشناعة، كريه ممقوت، لا يليق بالذين آمنوا، ولا يتسق وأخلاقهم الرفيعة.

وهنا يأتى الأمر فى محله تماماً: **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** كأنه قد فاض الكيل

---

(1) سورة النساء آية 19.

من ظلم بعض الرجال للنساء، وبلغ السيل الزبى، وأنه حسب النساء ما وقع عليهن من الجور والإجحاف، وأنه كاف ما تجرعنه من ألوان المنع والتضييق، وأنه قد آن الأوان أن تنظروا إليهن نظرة أخرىً، ملؤها التقدير والإنصاف، وفيضها المعروف والإحسان.

عاشروهن بالمعروف . . فهُنّ أولى الناس بالكلمة الطيبة، والمشاعر الصادقة، والمعاملة الكريمة.

عاشروهن بالمعروف . . فالعشرة لا تصفو إلا بالمعروف، ولا تطيب إلا به، أما الجور والظلم فلا تستقيم معه عشرة، ولا تدوم معه مودة أو رحمة.

عاشروهن بالمعروف . . والمعروف عام، لا يحده حد، ولا يقيده زمن، ولا يوقفه شيء . . فامنحوه إلى أزواجكم وافراً، والتمسوه فى كل موقف، واطلبوه فى كل مناسبة؛ لترفرف السعادة على حياتكم، ويعم الخير أرجاءها ونواحيها.

كم من زوج يبتسم فى وجوه العالمين، تراه فَكِهَ القول، لين الجانب، مزّاحاً دعّاباً . . فإذا بلغ عتبة داره نَظَرَ، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر!

وكم من زوج تراه قليل الحيلة، ضعيف النفس، يخشى الناس أجمعين . . فإذا رأى زوجته انتفض أسداً هصوراً، وبطلاً مغواراً، كأن البغاث[1] بأرضنا يستنسر[2]!

وكم من زوج لا يطيب له المقام فى بيته إلا إذا سب زوجته، ولعن، وهاج وماج . . وهناك من لا يستريح إلا إذا اعتدى، وما أدراك ما الاعتداء؟!

إن إهانة الرجل زوجته دليل خسة ولؤم، ودليل ضعف وجبن، ولكن إكرامها يدل على نبل الطبع، وطيب الأصل، وعمق الرجولة، واتزان الشخصية.

ذلك أن القائد الحكيم، الواثق من نفسه، الكريم فى طبعه، لا يجور على من هو أضعف منه جسماً، وأقل منه حيلة . . بل يعفو ويحسن، ويسامح ويغفر، أما القائد الآخر فتراه فى حاجة ملحة لإثبات ذاته، وتحقيق رياسته، لأنه يشعر دائماً بالنقص، ويحس بالضعف، ولا يطمئن إلى رجولته وشخصيته.

(1) من ضعاف الطير.

(2) صار كالنسر فى القوة.

ولو نظر المؤمن إلى حياة الرسول - ﷺ - مع زوجاته، لوجده كريماً سخياً . . فها هو يتواضع أشد التواضع، ويتفرغ رغم مشاغله الجسام، ويسابق عائشة - رضى الله عنها - ويداعبها ويمازحها دون غضاضة أو تحفظ .

ولكن لماذا لا يعاشر الرجل زوجته بالمعروف؟ ألأنه يكرهها؟! **﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** .

أجل . . قد تكره زوجةً ويأتى من ورائها خير كثير، وقد تحب زوجة والخير عنها بعيد!

قد تكره زوجةً . . وتلد لك من البنين ما تقر به عينك، وينشرح له صدرك، فتراهم صالحين متميزين .

وقد تكره زوجةً . . ويزداد رزقك، وينمو مالك، ويفيض عليك الخير من كل جانب .

وقد تكره زوجةً . . وتغيب عنك المصائب، ويُرفع عنك الداء، وتتمتع بموفور الصحة وطيب العافية .

وقد تكره زوجةً . . ولكنها تحافظ على عرضك، وتصون بيتك، فلا تعرف للحرام سبيلاً، ولا للمعابة طريقاً .

وقد تكره منها خلقاً، وترضى منها آخر، كما فى الحديث : «**لا يفرك**[1] **مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضى منها خلقاً آخر**» .

والزوج فى كثير من الأحايين - حين يكره زوجته - لا يرى إلا معايبها، ولا يبصر مزاياها، كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

ولو أنصف لرأى فى زوجته خيراً كثيراً؛ منه ما يتعلق بذاتها، ومنه ما تكون هى سبباً فى جلبه وحصوله .

وحين يلفت القرآن نظر الرجال - حين يكرهون أزواجهم - إلى خيرٍ منتظر، أو

---

(1) لا يفرك : لا يبغض .

رزق محتمل . . يكون قد أسدى للنساء جميلاً، لا يقدرن على الوفاء بشكره وحمده، ويكون أعفى الرجال كذلك من هواجس القلق والحيرة، ومتاعب الشك والارتياب .

فالقرآن يعلم من النفس البشرية ما لا نعلمه نحن، ويعلم كذلك أن مسألة الحب والكره وقتية، تغدو وتروح، تأتى بأسباب، وترفع بأسباب، ولو بنيت البيوت على الحب أو الكره لقامت فى لحظة، ولهُدِّمت فى لحظة، ولكن علاقة الرجل بزوجته تشملها أشياء كثيرة غير الحب والكره، وتسعها غايات أخرى، وأهداف لا ترتبط كثيراً بمسائل الحب والغرام، أو مواقف العشق والوئام .

صحيح أن الحب بين الزوجين حيوى وهام، ولكننا لا ننسى أن الحب والكره من المسائل العرضية تحيا وتموت، فهى كالريح لا تلوى على شىء، ولا تثبت بأرض، ولا تتعلق بمكان .

إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فلا يظن أحد بقاء الحب أبداً، ولا يتوهم زوج أن الكره أبداً دون زحزحة أو ذهاب، ولكن دعاء الله ـ سبحانه ـ، وهو مالك القلوب، فى مثل هذه الحالات أرجى وأجزى .

انظر إلى زوجتك من زوايا متعددة، ودعك من الزاوية الحرجة تلك . . ستجد منها ولداً صالحاً، أو رزقاً واسعاً، أو طاعة فى معروف، أو حفظاً ورعاية، أو صوناً وعناية .

بهذا تطمئن القلوب، وترتاح النفوس، ويتماسك المجتمع، ولا تتعرض العلاقات الأسرية لتيارات المد والجزر، بل يضمن لها الإسلام الثبات والاستقرار إلى أقصى حد، حتى فى حالات الكره والإعراض .

إن الزوج العاقل حين يتسرب إلى قلبه شىء من الكره لزوجته، عليه أن يتذكر قوله تعالى : **﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** . وعليه أن يثق في رجاء الله ـ سبحانه ـ ؛ فإن خيره لا حدود له، ونعمه لا تحصى ولا تعد .

﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾

وعائشة أم المؤمنين فى جانب من البيت، لا تكاد تسمع كلام خولة بنت ثعلبة، وهى تجادل رسول الله ـ ﷺ ـ فى زوجها أوس بن الصامت، تَسْمَعُ بعضَ كلامها، ويَخفى عليها بعضه، بيد أن الذى وسع سمعه الأصوات كلها، قد كان يسمع ويرى، ويشهد كل ما يدور بين هذه الأَمَة وبين رسوله الكريم، وهى ترفع شكواها إلى رب السماء، فما برحت حتى نزل جبريل يتلو قوله ـ تعالى ـ: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**(1).

وقد جاءت خولة بنت ثعلبة إلى رسول الله تشكو ظلم زوجها لها، بعد أن ظاهر منها (حَرَّمها على نفسه بقوله: أنت علىّ كظهر أمى)، وتقول: يا رسول الله إن أوساً ظاهر منى بعد أن كبرت سنى، ورَقَّ عظمى، وإن لى منه صبية صغاراً، إن ضممتُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا، فما ترى؟! فقال لها: « **ما أراك إلا قد حرمت عليه** »، فقالت: يا رسول الله، والله ما ذكر طلاقاً، وهو أبو ولدى، وأحب الناس إلىّ.. فمازالت تراجعه ويراجعها، حتى نزل قوله تعالى: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..﴾**.

هذه هى المرأة التى كان يَئِدها ذوو الأحلام بالأمس القريب، وإن أبقوها فلا صوت لها ولا جدال؛ بل هىَ شىء من المتاع، وشىء من الإرث لا قيمة له ولا قرار!

هذه المرأة صارت شيئاً آخر، يعلو صوتها بالحق، وتجادل وتحاور، قد حررها الدين الجديد من ربقة الذل، وقيد الأسر، منحها مسحةً من الكرامة، وطيفاً من السمو والإرتقاء، ونفخ فيها من روَحه، فغدت فى ثوب قشيب(2)، وحُلة تضاهى

---

(1) سورة المجادلة آية 1.

(2) جديد نظيف.

حلل أهل المجد والفخار، وجلست على عرش البقاء، واتخذت التاج والصولجان، وشرعت تبحث عن حقوقها، وها هى الآن تجادل أعظم الخلق، تراجعه ويراجعها، دون خشية أو مواراة، فلا تبرح مكانها حتى نزل الوحى، يبين أمرها، ويستمع إلى شكواها، وقد كانت تُقْرَع بالعصا، وتُدفن فى الثرى، ولا تجرؤ على المطالبة بحقها فى الوجود!

ما هذه النقلة البعيدة؟! وما هذا التحول المفاجئ؟! حين لا تَقْنع هذه المرأة بجواب رسول الله، فترفع شكواها إلى رب العزة، فيسمع جدالها، وينزل فيها قرآناً يُتْلَى إلى يوم الدين!

وما هذه الآفاق الواسعة؟! حين تستعرض أسباب الظلم الواقع عليها، وحين تشعر بمسؤوليتها تجاه أولادها، فلا ترضى لهم الضياع أو الحرمان،

وحين تستغرب وقوعَ طلاق، وهى التى تحب زوجها، فهو أبو ولدها، وراعى بيتها، وتستشرف فرقاً بين الطَّلاق والظهار، وكأنْ قد استنطقت الوحى، فنطق بشكواها، وأيَّد منطقها وحجتها.

ثم ما هذا التصميم الواضح، والعزم الآكد؟! حين تراجع الرسول ـ ﷺ ـ ويراجعها، دون أن تلين لها قناة، أو يضعف لها رأى، فقد أيقنت أن الدين الجديد يأبى الظلم، وهى تتجرعه حين ظاهر منها زوجها، وتثق أن الله سيكون معها؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا يحكم إلا بالحق، ولا يقضى بين الناس إلا بالقسط.

هذه عقيدة راسخة لديها، فقد علمها الدين الجديد ذلك، لذا تَشَبَّثَتْ مكانها لا تريمه[1] ولا تبرحه، وكأنْ قد أحست بمشاعرها الصادقة أن الله سينتصر لها، فكان لها ما أرادت.

إنها نفس العقيدة التى حَوَّلت سحرة فرعون بين عشية وضحاها إلى صالحين أبرار، وجعلت عمر بن الخطاب غليظ القلب، شديد الأذى، صعيب الجفاء بالمسلمين.. جعلته مثالاً فذاً للعدل والزهد والورع.

---

(1) رام مكانه: برحه.

فهذه العقيدة حين تخالط القلوب، تملؤها بالخير والصلاح، وحين تخالط العقول تستحيل إلى نور وحق ويقين!

لقد كان الوحي عظيماً، حين ينزل ويسجل هذه المجادلة اللطيفة، وحين يهتم بشكوى هذه المرأة؛ ليعلن عن بداية جديدة لذلك الإنسان، واحتفاء بالغ بالمرأة، بعد أن كانت دون الجماد، في الجاهلية الأولى، وفي هذا العصر الماكر الخادع!

﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1]

نعتقد جازمين أن البشرية حين تنحرف ولو قيد أنملة ـ عن فطرة الله التى فطر الناس عليها، فإنها تستجلب إلى ساحتها شراً مستطيراً، وهلاكاً مستعجلاً.

حين تجاوز هذه البشرية نقطةً واحدة على صفحة هذه الفطرة السليمة، وحين تتخطى شبراً واحداً دون أخذ وامتثال، فإنها تكون قد كتبت على نفسها العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة!

وأرادت الحضارة الغربية أن تتخطى نقاطاً عدة، بل تجاوزت نقاط الدين جميعها، لمّا جعلت من الحرية صنماً يُعبد من دون الله، فألبسته طقوس العبادة، ومسوح القداسة، فغدت هذه الحرية ديناً، تتهاوى أمامها المبادئ والأعراف، فالحلال ما أحلت «الحرية»، والحرام ما حرمت، وتلاشت الهوة الفاصلة بين الرذيلة والفضيلة، وانداح الناس فى أهوائهم، وغرقوا فى شهواتهم، واختلط هناك الحابل بالنابل، وانفصمت عروة المجتمعات، وتناثرت، فصارت هباءً منثوراً!

وخَطَت الأنظمة الغربية خطوةً هالكة، حين ساوت بين الرجل والمرأة فى كل شىء، غاضِّين الطرفَ عن طبيعة التكوين، وفطرة الاستعداد والتركيب، فاشتطوا فى ذلك وعالوا[2]، وصار للمرأة ما للرجل سواء بسواء!

ومن علائم هذه المساواة البغيضة أن صار الطلاق حقاً للرجل والمرأة على السواء، فماذا كانت النتيجة؟!

* الهروب من العلاقات الزوجية الشرعية، التى ما تكاد تلتئم حتى تنفصم، تبعاً لأهواء المرأة، ووفقاً لمزاجها المتقلب.

* زيادة نسبة حالات الطلاق بصورة غير مسبوقة ولا ملحوقة.

---

(1) الآية 229 من سورة البقرة، وتبدأ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

(2) عال فى حكمه: جار ومال عن الحق.

* تصدُّع الأسرة فى هذه المجتمعات، وانهيار قواعدها، بل كادت تتلاشى فى الدول الأكثر تحرراً!

* كثرة الإنجاب خارج إطار الزواج الشرعى، مما يعنى سيطرة الأولاد غير الشرعيين، وبسط انحرافاتهم النفسية والأخلاقية على المجتمعات.

* اللجوء إلى الممارسات المحرمة، بعيداً عن زواجٍ هش، أو طلاقٍ غدا مثل الدمية فى أيدى الأطفال.

هذا حصاد مرير، جَنَوْه حين ألْقوا بالدين وراء ظهورهم، وحين اتبعوا غواية الشيطان.

وكان الإسلام حكيماً كل الحكمة، إذ حث على الزواج، وحَذَّر من علاقات الإثم والفجور، وإذ جعل عروة الأسرة فى يد الرجل، فمنحه حق الطلاق دون المرأة؛ لأسباب عدة، ودواعٍ لا حصر لها!

فمن الناحية النفسية، فالرجل أشد تحملاً، وأقوى اتزاناً، وأكثر حلماً، وأصوب حكماً، يتسم بالتريث والأناة، ويتصف بالصبر وعدم العجلة، فلا يقدم على الطلاق عند أول سيئة يتلقاها، ولا يفكر فى الفصام عند أول مشاحنة يتعرض لها.. تراه حذراً إن فكر فى الطلاق مهما اشتدت دواعيه، وتعددت بواعثه.

أما المرأة فتراها مَلأى بالعواطف المتدفقة، والمشاعر الفياضة، فيؤثر ذلك على قراراتها، وقوة احتمالها، وصواب حكمها.. فالانفعال العاطفى يولد أحكاماً متسرعة، يتبعها ندم وحسرة، وقلق وحيرة. فلو وضع الإسلام الطلاق فى يدها، لأنهت العلاقةَ الزوجية فى عشية قبل ضحاها، قد تدرى أسباب ذلك وقد لا تدرى!

وأن تكون المرأة مكتظة بالعواطف والمشاعر ضرورةٌ من ضرورات الحياة، فبدونها تغدو الحياة لا رَوْح فيها ولا ريحان، ولا ظل ولا جمال، بل موحشة كصحراء جرداء!

فهى تمد الحياة فى مهدها بما لا يقدر عليه الرجال، وتهب لنا من الود والرحمة

ما لا نستطيع شكره . . فهذه جوانب كمال فى المرأة، جوانب نقص عند إصدار الأحكام، ومنها الطلاق ، فالنقص هنا كمال عندالرجل، كما أنّ كمال الود والرحمة لدى المرأة نقص فى شأن الرجل!

ومن الناحية المادية نجد أن الطلاق فى يد الرجل عين الصواب، فقد أنفق المال الكثير كى يتم أمر الزواج، فهو أشد حرصاً على استمراره وبقائه، فكيف يقدر على زواج جديد باستعدادات مادية جديدة؟! فضلاً عن مستحقات مطلقته التى هجرها من مؤخر للصداق أو متعة أو نفقة زمن العدة.

فالرجل يفكر ألف مرة قبل أن يُقدم على هذه الخطوة الحاسمة، فى حين أن الزوجة لا تتحمل شيئاً من تبعات الطلاق المادية، بيد أنها قد تحزن كثيراً، وقد تفرح أحياناً أخرى!

ومن تمحيص القول أن الفطرة، دون أية أسباب أخرى، تجعل الطلاق من حق الرجل وحده، فالمرأة حين تلتزم الحيدة، وتتسم بالنصفة والعدل، فإنها تهب هذا الحق للرجل دون غضاضة، ودون أدنى شك أو ريبة.

وحين يمنح الإسلام هذا الحق للرجل، لا يمنحه مكرمة له وفضلاً، بل يمنحه إياه؛ لأن واقع النفس، وإلحاح الفطرة، وطبيعة المجتمع تستوجب ذلك دون محاباة أو مجاملة.

والمرأة عندنا ـ وعند المجتمعات العاقلة ـ تشعر بالارتياح عندما تؤول مثل هذه الأمور إلى الرجل، بل تجد سعادة فى ذلك وأمناً.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (1)

المعركة التى يخوض إبليس غمرتها هذه الأيام، هى معركة العُرْى والسفور؛ فأصبح جسد المرأة ملهاة للناظرين فى وسائل الإعلام جميعها، وأخص منها المرئية، وصارت الشهوات مرتعاً للماجنين العصاة، فاشتد أوار المعركة، وتأجَّج لهيبها، وانداحت أرباض الفاحشة ومسارحها، وغدا سعار الشهوة معربداً فى مجتمعاتنا؛ فأصاب العاصين منا لهيبُهُ، وناره، ونال الصالحين منا دَخَنُهُ ودُوَارُهُ، وأصبحت خطواتنا ـ فى كثير من الأحايين ـ تسير على قرعات طبول واحدة؛ هى طبول العشق والحب والغرام!

واستطاع إبليس أن ينتصر فى هذه المعركة التى خاضها انتصاراً ساحقاً، وترى علائم هذا الانتصار واضحة من خلال مطالعتك للمجلات والصحف، وقنوات التلفزة، وأغانى المطربين والمطربات ـ الأحياء منهم والأموات ـ حتى قصص الروائيين المحدثين . . تستطيع أن ترى فى معظم هذه الوسائل الإعلامية عُرْياً فاضحاً، بصورة غير مسبوقة ولا ملحوقة!

ولو درست تاريخ الأمم الخالية، والعصور البائدة، ما رأيت عصراً فاق ما وصل إليه عصرنا الحاضر من تبرج وسفور، وتفسخ وإباحية . . ويُعزى ذلك إلى الطفرة الهائلة فى وسائل الإعلام والاتصال، فأصبحنا نرى من المجون والفسوق والعرى مثل ما يرى غيرنا فى المجتمعات الفاضحة سواء بسواء، لا فرق بيننا وبينهم، فصار «البث المباشر» فوق رؤوسنا، وتحت أقدامنا، تزكم أنوفَنا أدخنةُ المشاهد الخليعة، والمناظر الهابطة، والألفاظ النابية، فضلاً عما يقوم به بعض المسلمين ـ وللأسف ـ من مشاركة فعّالة فى هذا الجانب المظلم. فصرنا لا نلتفت لفتة حتى نرى ما لا يُرى، ونشاهد ما تستحيى من كتابته الأقلام، وما يندى منه الجبين . . وطَفق إبليس ينزع من لباس البشرية ما شاء؛ ليريهاسوآتها، فوقعنا فيما حذرنا الله منه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا

---

(1) سورة النساء آية 119 .

يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ ينزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا..﴾(1).

واطمأن الشيطان لهذا الانتصار الكبير فى دنيا العرى والخطيئة، فانتقل نقلة جريئة، ما كان له أن ينتقل إليها، لولا الضلال المبين الذى يعيشه العالم الآن.. انتقل نقله وطيئة خسيسة، تمثلت فى استبدال الجنس؛ من ذكر إلى أنثى، ومن أنثى إلى ذكر، وأصبحت الصنعة الإلهية أداة تلهية للعابثين. فقد ورد فى صحيفة «الشرق الأوسط» بتاريخ **10-9-1998**م ما نصه:

«أكدت وزارة الدفاع الكندية أمس أنها ستدفع التكاليف الكاملة للعمليات الجراحية التى يمكن أن تجرى لتغيير جنس العسكريين، وذلك بعد موافقتها قبل أيام على دفع تكاليف عملية لتغيير جنس أحد الجنود. وقالت الوزارة فى بيان رسمى: إن القرار الجديد يرتكز على قرار سابق بعدم التمييز بين الشباب من الجنسين حين تقدمهم للانخراط فى الخدمة العسكرية. وأضافت قائلة:

إن القرار اعتمد أيضاً على نصائح من الخبراء بأنه لا يوجد أى سبب يحول بين الوزارة وقبول أى شخص يتقدم للانخراط فى السلك العسكرى، إذا توافرت فيه الشروط اللازمة، بغض النظر عما إذا كان فى السابق ذكراً أو أنثى.. وبالتالى فإذا احتاج العسكرى لعملية تغيير جنس أثناء ارتباطه مع الجيش، فإن الوزارة هى التى ستدفع التكاليف الكاملة..»

فإن الوزارة هى التى تتولى هذا الأمر، وهى التى ستدفع التكاليف كاملة. تكاليف ماذا؟!

تكاليف التلهية والسخرية، تكاليف الحضارة الزائفة القائمة على الجسد دون الروح! تكاليف باهظة تُوجه إلى صنعة الله؛ لتتحول إلى شكل آخر، اعتراضاً على الخالق البارئ المصور. أليس هذا العمل هو الذى يصف التبجح؟! ويصف ـ كذلك ـ جنون الحضارة التى يتوحَّلون فى وحلها، ويتمَّرغون فى طينها ووسخها.. أية

(1) سورة الأعراف آية27.

عقلية هذه التى يفكرون بها؟! أجزم أنها مستعارة، ومستعارة من إبليس، وإبليس وحده!!!

وفى ذات الصحيفة، وفى عدد آخر تحت عنوان: أول محل لتحويل الرجال إلى نساء خلال ساعة ببرلين، جاء تحته :

«. . ويقدم محل «التحولات» للراغبين كل ما من شأنه تحويلهم من رجال إلى نساء خلال ساعة، والتمتع ببقائهم فى حالة أنثوية طوال ثلاث ساعات مقابل 300 مارك ألمانى. . ولمن يود التحول فعلاً إلى امرأة، فالمحل قادر على تزويده بمركبات هرمونية قادرة على تنمية الثديين بسرعة قياسية. . وأبدت ريدمان «مديرة المحل» عجبها من الرواج السريع للمحل، حيث يقبل الرجال على تحويل أنفسهم إلى نساء بمعدل **2-3** رجال فى اليوم، ويشمل هذا الرقم العزاب والمتزوجين على حد سواء، ناهيك عن أن بعضهم موظفون كبار فى الشركات والمؤسسات الألمانية. . ».

لقد استطاع إبليس أن يدير المعركة بكل حذق ومهارة، وأراه الآن ينفض عن كاهله غبار المعركة، ويقوم من عثرته، وينَهض ليسترد أزمَّة الشر والفساد والانحلال على وجه هذه البسيطة، وها هو فى قمة نشوته وازدهائه، بعد أن تحقق ما وعد به: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ . .﴾[1].

نعم. . لقد أمر إبليس، فاستجاب لأمره أناس كثير، فاقتصر الأمر فى بدايته على تشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، ولكنه استدرج البشرية إلى مزالق شتى فى هذا الاتجاه، فكانت «عمليات التجميل» أولى خطوات التغيير الكبير، فانتشرت انتشار النار فى الهشيم، وتعددت أغراضها، وتنوعت مآربها، وقفزت قفزات متلاحقة ومتتابعة، وأصبحت الأنثى التى لا يعجبها «أنفها» قادرة على تغيير نمطه متى شاءت ـ وغير الأنف كثير ـ فاعتدى طبيب التجميل ـ فى كثير من الأحيان ـ على صنعة الله دون ارتداع أو اتِّزاع[2]، فأخذت الأنثى تتقلب من شكل إلى شكل، ومن لون إلى لون، حسب حالة نفسية تعترى روحاً خاوية وخالية من كل معانى الإحساس بالوجود الحقيقى.

(1) سورة النساء آية 119.

(2) كف ومنع.

ومن أغرب ما وقع فى هذا الباب، ذلك العريس الحزين «ألن كينكايد» الذى قام بتحويل نفسه بعملية جراحية إلى صورة حية من عروسه المتوفاة، وذلك للاحتفاظ بذكراها إلى الأبد، وجاء فى الصحيفة التى أوردت الخبر على لسان ذلك العريس قوله:

«إن هناك إيضاحاً واحداً ينبغى استكماله قبل أن تكتمل سعادتى، وهو أننى أريد تغيير اسمى بصفة قانونية لكى يصبح «نانسى كينكاند» وعند ذلك يصبح تحول الجنس تاماً، ونعيش أنا ونانسى كشخص واحد. . وإننى أعلم أنه من الصعب أن يصدق الناس ما حدث، ولكنه أسعدنىَ وأراحنى كثيراً أن أنظر فى المرآة وأرى صورة نانسى الحبيبة تظهر فى صورتى. .»

ولا أريد الخوض فى «مستحضرات التجميل» وما تجلبه ـ فى كثير من الأحيان ـ من تدليس وخداع لصورة المرأة، ولكن أكتفى بأن الأمريكيين ـ وحدهم ـ ينفقون ثمانية مليارات دولار سنوياً على مستحضرات التجميل، وهو مبلغ يفوق بمليارين المبلغ الذى نحتاجه لتوفير التعليم لكل شخص على ظهر الأرض.

ويبقى استبدال الجنس هو قمة التغير فى خلق الله؛ حين يوحى إبليس إلى زبانيته بفتح «محلات التحول» فى دول الغرب، يدخل الرجل إليها رجلاً؛ ليخرج أنثى، حاسباً أنه يستمتع بأنوثته المصطنعة. . وما هى إلا لحظات، حتى يرى نفسه فى الدرك الأسفل من الحيوانية والخواء، فيريد العودة إلى صورته الأولى. . تَدَاوُلٌ من بعد تدَاوُل، وهروبٌ من بعد هروب، يدور فى حلقة مفرغة لا طرف لها، فتنسلخ من ذاتّه كلُّ معانى الوجود الحقيقّية؛ ليرى الحياة بمنظار الهُزْء والتلهية، وتنطمس لديه كل معانى العطاء والإعمار؛ ليطارده الخواء الرعيب، مرتاداً طبقات الفراغ والضياع ـ طبقاً عن طبق ـ فيفقد الهوية، ويغيب لديه الوجود، فيتخيله فى صورة أنثى، لعل فى صورة الأنثى طعماً للحياة، فيجده ـ بعد التحول ـ مراً أيَّما مرارة، فيجرب الانتحار والموت؛ فهو فى هذه الحياة قد حار، فيجد جهنم، وبئس القرار!

إخالك معى فى هذا الوصف؛ لنقف سوياً على حقيقة الوجه الآخر لهذه

البشرية التى تدَّعى الحضارة والَسْبق، ولكنها حضارة - فى كثير من جوانبها - مظلمة كالحة دميمة، وما أحسب بعضَ الذى ذكرنا إلا بداية النهاية، لهذه الحضارة المتبجحة على كل شىء . . حتى على صنعة الخالق - سبحانه -!

فهل يترك المخلصون حلبة المعركة لإبليس وأعوانه، يعربد فيها كيف يشاء، أم أن هناك بعثاً إسلامياً قادماً فى الطريق، يُخلِّصُ العالم من ورطته الشهوانية تلك؟!
نأمل ذلك!

﴿فرجلٌ وامرأتان﴾

ولما كانت شهادة المرأة نصف شهادة الرجل فى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ..﴾[1] كانت هناك أسباب فطرية ونفسية واجتماعية.

أما الفطرية.. فإن الله قد خلق المرأة ابتداءً بعاطفة جياشة، وشعور فياض، ورحمة واسعة تكتبها للذين تحبهم، وتسبغها على الأقربين إسباغ فطرة وطبيعة.. والشهادة لا يشترط أن تكون فى جانب هؤلاء، فيحتاج الأمر إلى تجرد عميق، وتريث شديد، وتعقل لا يتبعه عطف، ولا يسبقه شفقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2].

فالمرأة شديدة الإخلاص، قوية الحب والعطاء، قد تهب لصديقة عابرة ألفتها ما لا تهب للآخرين. ليس لأنها لا تحسن التمييز، ولكن لأنها عظيمة الود، عبقرية المشاعر.. وهذه جوانب كمال فى حياة المرأة جوانب نقص فى دنيا الشهادة.

وهذا العطاء المتدفق أودعه الله المرأة حتى يتناسب مع أمومتها ووظيفتها فى هذه الحياة. وهو عطاء لا تسير دفة الحياة دونه، ولا تهتدى بغير تأصيله ووجوده.

بيد أن هذا العطاء الفياض من الرحمة والشفقة لدى المرأة قد يضلها عند تذكر خطوات الحدث؛ فتزيد دون قصد، أو تنقص دون عمد، ويتبع ذلك نسيان يلزمه تذكير، وتضليل يحتاج إلى تصحيح وتعديل: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾.

---

(1) سورة البقرة آية 282.

(2) سورة النساء آية 135.

لذا كانت نفسية المرأة غير نفسية الرجل، ففى حين ترى الرجل فى مشهد جلل، رابض الجأش، صعب المراس، تتابع عيناه خطوات المشهد خطوة خطوة دون هرب أو خفاء، بل قد يتدخل فى الأمر، ويغير مجرياته ونتائجه، فطبعه الإقدام، وسجيته التطلع والإقحام.

أما نفس المرأة فلا تطيق ذلك، ولا تصبر عليه، فقد ترى شيئاً يبكيها، وقد تبصر مشهداً لا تقوى على متابعته وملاحقته لعنفه وشدته، وقد لا يهمها سوى الاطمئنان على بعض من تعرف دون احتفاء بالأسباب والنتائج.

أضف إلى ذلك عنصر الحياء المتوغل فى ذات المرأة منذ أن خلقها الله، هذا العنصر قد يحول بينها وبين المتابعة الجريئة، فضلاً عن التدخل المباشر.

وقد يكون الحدث بسيطاً ليناً لا عنف فيه ولا شدة، ولكنه يحتاج إلى روية واتئاد، ويحتاج إلى تصحيح وتسديد، فلا تتشابك خيوطه البسيطة، ولا تتباعد نهايته القريبة.

وهناك مبررات اجتماعية كثيرة ومتداخلة، فالمرأة حين منحها الإسلام نصف شهادة الرجل كان قد ألزمها البيت، وجعله أصلاً وقراراً؛ كى تتفرغ لوظيفتها الكبرى فى هذه الحياة من تربية وتنشئة.

والرجل كثير الخروج، شديد الاختلاط، خبير بالبيئة التى يعايشها، عليم بالتغيرات والتقلبات، تتراءى أمامه الدوافع واضحة، وترتسم حياله خيوط الأحداث بينه دون لبس أو تداخل، وقد يتوقع الحدث، وقد لا يعزب [1] عن فطنته خاتمته قبل وقوعها!

وهو كذلك سهل إذا دُعىَ، سريع إذا نُودى، لا يتطلب وجوده وجود. . قوى المناظرة، شديد المحال والجدَال، وهو فى الخصَام واضح ومبين.

وعفة المرأة تحول دون ذلك، فلا يرضى لها الدين أن تتوقف ـ ترصد وتتابع ـ كلما رأت حدثاً، ولا يليق أن تكثر من التلفت والتطلع كلما خرجت، ولا ينبغى أن

(1) يعزب: يغيب.

تكون موضع استدعاء يتكرر بتكرر الأحداث والمشاهد، فتزداد جرأة، وتكتسب اختلاطاً، وتقل حياءً، وينضب معين التستر والعفاف لديها.

والإسلام حريص كل الحرص على عفتها وتجملها وحيائها، وينفر من تبذلها واختلاطها وجرأتها. . فهى لديه كالجوهرة التى لا يليق أن يخدشها غبار الأحداث، أو يدنسها اللغط والصخب، أو يرهقها كثرة الاستدعاء والاستجداء.

لذا كان الدين واقعياً حين جعل الشهادة فى جانب الرجل أقوى وأصوب، وكان مثالياً كذلك حين راعى عفة المرأة وصونها وكرامتها.

﴿..يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا..﴾

اصطف الملائكة يستعَدون للسجودَ لآدم، بعد أن خلقه الله من طين، وصوره فأحسن تصويره.. ولكن الرب يرى واحداً لم يكن من الساجدين. إنه إبليس، فقد قاسَ قياساً، وحكم حكماً، فأبى واستكبر، فهبط منها، فلا مكان فيها للمتكبرين..

وحمل إبليس حقداً دفيناً على آدم وذريته، وتميز من الغيظ، فأقسم وتوعد، وهدد وتجبر، وقعد لبنى آدم الصراطَ المستقيم. قد تفرَّغ كل تفرُّغ، وجلس لكل شاردة وواردة، وكل خاطرة وخالجة، وجرى منهم مجرى الدم فى العروق. من بين أيديهم يأتى ومن خلفهم، وعن أيمانهم يأتى وعن شمائلهم؛ فلا يشكر أحد، ولا ينجو أحد إلا المخلصين، ولكن جهنم بالمرصاد لمن اتبع الشياطين.

وأمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه، يأكلا من كل الثمار إلا واحدة. وأنى لآدم أن يهنأ، وقد قعد له إبليس وتربص، وشرع يوسوس ويزين؛ لهدف واحد، وغاية واحدة: **﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾** [1].

أجل.. وسوس لهما؛ ليظهر هذه السوأةَ التى توارت، ويُبدى هذه العورةَ التى استترت. فهو يعلم نقاط الضعف فى هذا المخلوق الجديد، ويعلم كذلك غلبة شهوته، وسطوة دوافعه وغرائزه..

وقاسمهما أنه من الناصحين، فَدَلَاهما بغرور؛ ليذوقا الشجرة، ولتبدو العورة، وينكشفا فيفزعا، وإبليس واقف يقهقه، ويرسل ضحكاته صاخبة قاهرة، فقد تحقق المأرب، وتم المقصد، ونال من آدم وحواء ما تمنى، وضمن انتصاراً ساحقاً، وغنماً وافراً، ووثق إلى قدرته فى المناورة، وقوته فى المغالبة، وأمن إلى حيلته ومكره، وآوى إلى ركن شديد من التزين والفتنة..

---

(1) سورة الأعراف آية 20.

ونتطلع إلى آدم وزوجه وقد ارتاعا وفزعا، واضطربا واصطرعا، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، بعدأن جرح الشيطان حياءهما، وخدش سترهما وعفافهما. وكانت النتيجة أن هبطا إلى الأرض كما هبط إبليس؛ لتبدأ حلقات الصراع متصلة بين بنى آدم وبين إبليس، ولتبدأ نداءات الرب تتوالى تعظ وتنصح:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾(1).

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(2).

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾(3).

ثلاثة نداءات تتعلق جميعها بالزينة واللباس، وبالسترة والعفاف، وبالصون والاحتشام.

والنداء الأول يُفصّل أنواع اللباس ويبين؛ فقد أنزل الله واحداً يوارى السوأة، ويحفظ العورة، وريشاً نتزين به ونتجمل.. وهناك لباس من نوع آخر أشد طلباً، وأعظم نفعاً، وأكبر ستراً. إنه لباس التقوى!

إن هذه اللباسات الثلاثة من آيات الله، حين أنزلها وحين شرعها، بها تتستر البشرية وتتجمل، وبها تتحصن وتتعفف، إن هى أرادت النصر فى معركتها الدائرة مع إبليس..

ولكن النداء الثانى كان أكثر تفصيلاً، وأعمق تفسيراً:

---

(1) سورة الأعراف آية 26.

(2) سورة الأعراف آية 27.

(3) سورة الأعراف 31.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا . .﴾ .

وتستوقفنا هذه الكلمات البليغة كل البلاغة : ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ إنه إعجاز القرآن حين يصف، وروعته الباهرة حين يبين، لا تقدر لغة البشر على متابعة فيضه، وملاحقة تدفقه. كلمات قصار تتراءى من خلالها مَغَاز[1] كثيرة، وترتسم من بينها معالم على الطريق . . وتَبرز على مسرحها صورةُ الشيطان؛ وهو متجهم غضوب، متبجح كلوح، يستعجل النزع، قد استفرغ جهده، وبذل وسعه، يحاول الفينة بعد الفينة، دون ملل أو فتور، لعله ينجح، ولعل السوأة تتكشف هذه المرة، ولعل العورة تتبدى، ولو رويداً رويداً . . فالطريق أمامه طويل، والهدف إضلال وتضليل، والوسيلة النزع والتعرى والسفور.

حاولْ أن تقف عند الفعل ﴿يَنزِعُ﴾ فى الآية الكريمة، فمن جرسه يتمثل صوت النزع وحركة الخلع؛ فالنون ساكنة تلتقط عند الوقوف عليها نَفَساً، يعين على الجهد الجهيد، الذى تطلبه «الزاى» المثقلة بالكسر الضائقة بضم العين بعدها . . صوت الفعل يحاكى النزع اللعين، ويحاكى كذلك عنف المحاولة، وقوة العزم من إبليس . .

نتطلع إلى ذلك الشيطان . . يشتهى الانتقام، ويريد التشفى، يحاول ويحاول، وقد عبس وبسر، وزاد الجهدَ وبذل . . وينجح فى نزع لباس الستر؛ ليَبْقَى العرىُ والكشف . . نراه الآن يخطفه هارباً، وقد توارى هو وقبيله، ينفض عن كاهله غبار المعركة، وينهض وقد تسلم زمام الشر، بعد أن تراءت العورات، وتبدَّت السوآت، يبرز ابتسامة النصر الكبير، بعد أن أضناه الجهد، وأتعبته المحاولة. ينزع وهو نافر كاره، يؤذيه التستر أشد الأذى، ويهلكه العفاف أينما وجد، قد قعد لنا الصراطَ المستقيم، أشد يقظة، وأكثر تلفتاً وتطلعاً، لا تفوته لحظة ضعف، ولا تضيع عليه فرصة سانحة، لينقض على فريسته، فينزع عنها لباس الستر، يخطفه هارباً لا يلوى على أحد!

---

(1) جمع مغزى، ومغزى الكلام مقصده ومعناه.

وكأنَّا نرقب إبليس الآن فى هذا العصر الهالك، وقد نال من بنى آدم كل مآربه، وحقق كل انتصاراته، بعدأن نَزَع كل نَزْع، وكشف كل ستر، وهتك كل حجاب. . وتراءى لنا العرى على كل صعيد، أنىَّ نلتفت نجده، وأنى نتطلع نبصره، نتنفس دخنه كل زفير وشهيق، ونتعاطى شرابه كل صَبوح[1] وغَبوق[2]. غدا شرعةً ومنهاجاً، وصار عرفاً وسلطاناً، أَلفْناه فلا ننكره، وأَلفَنَا فلا يُخطؤنا، فبلغ عصرنا منَ التعرى والسفور والتكشف ماَ لم يبلغه عصر قبلَنا، وما نرى إبليس إلا قاعداً باسماً ضاحكاً، قد نفض يديه من المعركة، واطمأن إلى نتائجها. .

هذه فتاه قد كشفت ذراعيها، وأبانت ساقيها، وأرسلت شعرها يتهادى على كتفيها. . ضاقت ملابسها، فالتصقت بجسدها التصاقاً، وأبرزت مفاتنها إبرازاً، لا تقول كاسية ولا تقول عارية؛ بل رسول إبليس إلينا. . تمشى تضرب فى الأرض ليُعْلَمَ ما تُخْفى من زينتها، فترى الأبصار إليها عالقة، قد بُهتتْ من فتنة المظهر، وخداع الصوَرة، لا ترى فرقاً بينها وبين فتاة الإفرنج، قد نافستها حتى فاقتها، فهى أشد حرصاً على الجديد فى «موضة الأزياء»، وأشد تلهفاً على التقليد والمحاكاة. . والدين عندها هو الأخير، والخلق لديها ضائع مهين. .

لقد هلع أهل الغرب حين نزلوا بلادنا، وأبصروا فتياتنا، وقد خالوا تديناً وتحشماً، فرأوا فساداً من نوع فسادهم، وتفسخاً وانحطاطاً، وتقليداً دون تبصرة، ومحاكاة دون دراية، فهلعوا وفزعوا، وعلموا أن أخلاق الشرق قد احتضرت، وتقاليده قد ذهبت أدراج الرياح!

والإسلام من أفعال أهله تلك براء، لا يرضى هذا العبث، ولا يقبل هذا اللهو وذاك المجون. . فقد عنى بالتستر والحشمة كل عناية، وخصوصاً لدى المرأة؛ لأنه يعلم أنها وسيلة إبليس الناجعة، وهدفه المعلن. . فشرع الإسلام يُفصل ويبين، وينصح ويحذر، ويدعو المرأة إلى التحشم وعدم الابتذال. . وتوالت الآيات تترى، وتتابعت الأحاديث كثيرة ومتعددة:

---

(1) ما يشرب صباحاً.

(2) ما يشرب فى العشى.

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾[1] .

* ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ . .﴾[2] .

* ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾[3] .

ومن الأحاديث :

* فقد روى ابن ماجة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : «بينما رسول الله ـ ﷺ ـ جالس فى المسجد دخلت امرأة من مُزينة تَرْفُل[4] فى زينة لها فى المسجد ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : **«يا أيها الناس : انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد ، فإن بنى إسرائيل لم يُلعنوا حتى لبسن نساؤهم الزينة وتبختروا فى المسجد»** .

* وروى أبو داود والنسائى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : **«أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهدن العشاء»** .

* وحديث أسماء مشهور ، فقد قال ـ ﷺ ـ: **«يا أسماء : إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يُرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه»** .

* وقد أخبر الرسول ـ ﷺ ـ أن هناك صنفين من أهل النار لم يرهما : رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مُميلات ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . . » .

والإسلام فى فرضه الحجاب لا يَقْهر المرأة ، ولا يصادر حريتها ؛ لأن الحرية فى الإسلام ليست غاية ، تداس على عتبتها المبادئ والأخلاق . فالخطأ الذى وقع فيه الغرب ، وهو خطأ فادح رعيب ، أن جعل تطبيق الحرية هو المقصد الأسمى للمجتمعات ، والمطلب الأعلى للأفراد ، وغدت الحرية هى القانون ، وهى المشرع

---

(1) سورة الأحزاب آية 59 .
(2) سورة النور آية 31 .
(3) سورة الأحزاب آية 33 .
(4) تتبختر .

الذى نيطت به تصرفات الناس وطريقة حياتهم . . وصارت المبادئ والأخلاق نافلة، وتحت رحمة الفرد؛ إن شاء لفظها، وإن شاء قبلها . . فانهارت المجتمعات هناك، وتناثرت قطعاً، وعاش الأفراد فى خواء مرير، وصراع مع النفس رهيب .

وكان الإسلام حكيماً؛ فلم يطلق العنان؛ لأنه يعلم هوى الإنسان وتفلته، ويدرك نزعات النفس وشطحات الفكر، فأطلق يد الإنسان فى أمور، وأمسك يده فى أمور؛ لا يختلف اثنان على ضرورتها وحيويتها، فأحدث بذلك نوعاً من التوازن، تحسدنا عليه أنظمة المجتمعات المتحررة . .

ومن هذا التوازن أنه أطلق الحرية للمرأة أن تلبس ما تشاء أمام زوجها، وتتحرر قليلاً أمام محارمها، وتحتشم كثيراً أمام الغرباء، فتتحلى آنئذ بالعفة والتستر، وتتخلى عن الفتنة والتبرج والسفور .

لا أتصور ماجناً من بلاد الإفرنج يغتبط حين يرى محجبة فى أحد شوارعنا، بل يطير عقله، ويفقد صوابه حسداً وحقداً على هذه العفة، وتلك الحشمة . هم لا يطيقون أهل الطهر على وجه هذه البسيطة، مثلهم فى ذلك مثل قوم لوط : **﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**(1) .

يغيظهم كثيراً منظر تلك الفتاة المحتشمة، ويغتاظ معهم بعضٌ من بنى جلدتنا، يكادوا ليزلقونها بأبصارهم لما رأوا التزامها، ويقولون إنه الجمود، بل التحرر لله وحده، لا تقهرها شهواتُ النفس ولا نزوات الهوى . ويقولون غابت الحرية، و ما غابت؛ بل تأصلت بالعفة والتستر، ويقولون إنه الانغلاق؛ بل الانفتاح إلى الخير والصلاح والإحصان . . يقدمون لنا العسل وفيه السم، والسراب على أنه ماء، ونحن نصدق ونطبق، فأصابنا ما أصابهم، وخسرنا كثيراً بالبُعد عن جوهر الدين ومبادئه .

ويتصارع العالم الآن من أجل سفور المرأة وتعريتها، وتُخصص لذلك مؤسسات وهيئات، وتعقد ندوات ومؤتمرات، والهدف واحد؛ حرية صلعاء،

(1) سورة النمل آية 56 .

وتحلل هالك، والصورة واحدة كذلك، تكشُّفُ المرأة وهَتْكُ سترها .

وتتكالب فى ذلك «بيوت الأزياء»، وتبث كل كاشف فاضح، وتنشر كل عار مقيت، تنزع كل يوم شيئاً من لباس المرأة، حتى أودعتها عارية أو شبه عارية، والمرأة تلهث وراء «الموضة»، كأنها رمز الحرية، وشعار التحضر، فصارت صورة مسيخة شنيعة، يلتقى على صفحة وجهها كل ألوان الطيف، تتنافر تارة، وتتجاذب تارة، حتى إذا رُفعت الزينة، وكشطت المساحيق، رأيت دمية قبيحة، أو شبحاً رعيباً، وأبصرت أنثى غير الأنثى، وشكلاً غير الشكل، وقبحاً بعد خداع، وحقيقة أليمة بعد سحر كذّاب!

وتنفق المليارات على أدوات الزينة، ومساحيق المسخ والتزوير، وألوان السحرة والدجالين، والفتاة عندنا تتشبث بكل جديد فى هذا العالم البغيض، يرشدها إلى ذلك مجلات متخصصة، وصحف صفراء كاسفة .

ولا تألوا وسائل الإعلام المرئية جهداً فى تأريث نيران الفتنة، وتأجيج مشاعر اللهو والانحطاط، بل أمعنت فى نزع لباس العفة، وهتك حجاب الحشمة . . تتراءى أمامك مناظر فاضحة، ومشاهد ماجنة، وكلمات تخدش الحياء، ولقطات يندى لها الجبين . . وتكشفت المرأة على شاشتها كثيراً، وتعرت أجساد وأجساد، فانتشرت الفتنة، وكثرت الخطيئة، وازدادت الرذيلة، وتجرع الناس ويلات العرى والانحلال .

ولا يظن أحد أن جنود العرى والفساد لا يبذلون جهداً، ولا يقدمون تضحيات، بل تراهم نشطاء لا يركنون إلى الكسل، يجيدون التخطيط والتنظيم، ويرسمون الأهداف والغايات، وينفقون الأموال ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يُغْهرون، فالطهر قائم، والعفة حاضرة، والاحتشام يزداد يوماً بعد يوم، ونور الله باقٍ إلى يوم الدين .

إن ميدان إبليس الرابح حين تتعرى المرأة وتتكشف، عندها يقع فى فخه أناس كثير، وخلق عديد، فما زالت المرأة هى أمضى سلاح يشهره إبليس فى ميدان

المعركة القائمة منذ أن خلق الله آدم وحواء، ومنذ أن أكلا من الشجرة فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . هنا علم الشيطان كيف يحارب بنى آدم؟ وكيف يسلب عقولهم ويضلهم عن سواء الصراط؟

بيد أن المرأة المسلمة ذات العفة والحشمة ما تزال صورة الفخر لدينا، وما تزال رمز الطهر على وجه هذه الأرض التى هبطت إليها أمها حواء، وما زال وجودها وجوداً للشخصية المتكاملة التى تثق فى ذاتها، وتشعر باعتزازها وكرامتها، لا تلتفت لصيحات الشياطين، ولا تتطلع إلى وسائل الغاوين الهالكين.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾

ويوسف مع سيدته، منصرف إلى خدمتها، يراها على حال من الولَه [1]قد بلغ شغاف القلب، قد سلب لبَّها جمالُ صورته، وسحر عينيها بهاءُ طلعتهَ، وحيرها سمت رائق، وحُسْن آسر. . وهى تحاول أن تظل فى صورتها العلوية؛ فهى من علية القوم، وهو عبدها الخادم. ولكنها غرقت فى حبه، وأدمنت عشقه، فتتهاوى صورتها العلوية تلك أمام فيض الغرام، وتدفق العاطفة، فتجد نفسها، وقد هرعت إلى الأبواب تغلقها باباً باباً، فتقبل على يوسف الصديق قد أخذت زخرفها وازينت، وظنت أنها قادرة على النيل من حسنه، والاقتراب من بهائه وجماله. .

وأحس يوسف بانفراد مريب، وخلوة قد صنعها إبليس على عينه، وزينها فأحسن زينتها. . فجمع خيوطها إلى مكره، وضم عروتها إلى كيده. . فاجتمع فى كلامها كل تذلل وتودد، وكل إغراء وتميع، وقالت: هيت لك. فكان يوسف من هذه الدعوة على أمرين:

الأول: حاسماً قاطعاً: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[2]. . وتشعر كأن القرآن قد ترك فراغاً مقصوداً؛ وقع فيه من محاولات الإقناع والإغراء ما يستجيب لها الحليم الرشيد، وفيه كذلك من الأخذ والرد وطول الإلحاح ما تلين له قناة القوى الأمين. فالمرأة فى قمة تصميمها، وهو فى قمة امتناعه، فأشعل هذا التضاد أوار الفتنة، وأحكم خيوطها . . وكأن بشرية يوسف قد رفعت رأسها قليلاً، فجاء الأمر الثانى على صورة الحكاية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[3].

كان ممكناً أن يُغض الطرف عن هذا الأمر عند عرض القصة، وأن يهملها القرآن فلا يذكرها، ولكنه كان معجزاً أيما إعجاز حين سجلها، وكان عبقرياً فى أمانة النقل حين أثبتها، وكان فذاً كذلك فى صدق الرواية حين رواها، فنتابع

(1) العشق والغرام.
(2) سورة يوسف آية 24.
(3) سورة يوسف آية 23.

أحداث القصة بعفويتها وشفافيتها دون تزويق وتزيين، فيتعلق بها قلبك، وتسمو بها روحك.

ولكن القرآن لا يعلق على هَم يوسف، فلا يعتبره عيباً معيباً، ولا خطئاً يستحق مجرد العتاب، كما فعل مع موسى حين وكز الذى من عدوه فقضى عليه، وحين عبس الرسول وتولى.. كأن الهمَّ فى مثل هذه الفتنة الحالكة لا يُعبأ به؛ فقد تآرزت عوامل الفتنة والإغراء على يوسف ـ عليه السلام ـ بصورة غير مسبوقة ولا ملحوقة، فأنْ يهم، فتجرى على قلبه خواطر متباينة دون توقف وتثبت لهو أدنى ما تعبر عنه بشريةُ إنسان، حين تُغرى هذا الإغراء، ولاسيما أن المحاولات يبدو أنها تعددت، والاصطراع قد طال، فكان الهمُّ هنا هو الصورة القاهرة التى لا بد لبشر فيها، ويوسف من البشر، كما كان الرسول ـ ﷺ ـ بشراً.. وهى صورة عفويةٌ ـ كذلك ـ لا تستحق مجرد عتاب أو نقد، فكان الهَمُ بمثابة أداة التنفيس التى لا يقدر بشر أن يقهرها فى مثل هذه المواقف الغرائزية، ولكنْ للنبوة دور، وللتقوى رادع؛ فيقف الهَمُّ فلا يتتابع، ويتلاشى الخاطر فلا ينصرف إلى قول أو فعل..

وأبت تفسيرات الأقدمين والمحدثين إلا الخوض فى هذا الأمر، فتلهث أقلامهم وراء تبرئة يوسف الصديق، كأنه كان ملكاً كريماً كما ظنت نسوة المدينة، وكأنه قد ارتكب خطيئة لا تُغتفر، وذنباً لا يجاريه ذنب، فشرعوا يدافعون، كأنهم كلفوا هذا الأمر، ورب العزة يسجل المشهد دون عتاب.. وإن كان الله سبحانه قد أراه البرهان؛ ليعين نبيه الكريم فى موقفه الذى أحاطته الفتنة من كل جانب، ضاربةً خيامها، ناشرةً أعلامها، كالسهام المسمومة!

ولماذا يستغرب أهل العلم أن تتدخل عناية الله؛ لتقوى بها عزيمة المؤمن، ويقدر على النجاة من الفتن؟! فما من خير يأتيه أو شر يفلت منه إلا بتوفيق من الله وعون.

ويوسف ـ عليه السلام ـ حين يكون فى فتنة هالكة، ثم يُريه الله برهاناً، ليصرف عنه السوء والفحشاء، لهو أمر لا يمت للغرابة بصلة، ولا يُثبت على يوسف الصدّيق لحظة ضعف، أو لحظة نسيان!

وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ أن أصحاب النزوات يتوقفون كثيراً عند هذه الآية، كأنها

مـخـرجـهم إلى الهـوى، وطريقـهم إلى اللذائذ والشـهـوات . . وهذا خطأ فـادح، ومسلك هالك، ولو أنصـفوا أنفسـهم لطالبـوها بهَم كالذى خرج به يوسف عليه السـلام، حين يقـعـون فى فـتنة قـد اضْطُروا إليـهـا، لا أن يَهُـمُّـوا وهُمْ على شـاطئ الأمان، أو يذهبوا بأنفسهم إلىّ الفتنة ذاتها دون ورع أو خشية!

ثم إن المرأة ليست رجساً، وليست شيطاناً، بل خَلْق خلقه الله سبحانه على صورة وضيئة، لهما جمال وقوة أسر، وبينها وبين الرجل قبول وتجاذب. فالخاطر حين ينشـأ بينهـمـا، ولا يكون إلا عـابراً، تدفـعه غـريزة قـائمـة، وتحض عليـه فطرة غـالبـة، فإنه لا يسلم منه البَرُّ والفـاجـر، إلا أن المؤمـن لا يُعْـذى هذا الخـاطر ولا يسايره، ولا ينصت إلى إلحاحه، ولا يلتفت إلى تبعاته.

فالمرأة من ذات الرجل، تهفـوا إليه، ويهـفـو إليهـا، فيسـتـحيل مع ذلك دفعْ الخـواطر، وإسـقـاط المشـاعـر، ولكنَّ الهـمَّ يحتـاج إلى عناية من الخـالق، وعـون وإلهام، وقد نال يوسف الصديق ذلك، لأنه من عباد الله المخلصين.

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا ﴾

لماذا كان العربى فى عداء مع الأنثى، إذا بُشِّر بها اسودّ وجهه وهو غضوب ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

ولماذا يمقت كثير منا الأنثى؟ وينشرح صدره للذكر؛ كأن ذلك من الفطرة، وما هو من الفطرة فى شىء!

فإذا كان للعربى قبل الإسلام مبررات لمقت الأنثى؛ فهى لا تقاتل الأعداء، ولا تشن الغارات، ولا تمتطى الجياد، ولا تكسب المال.. وقد تجر العار، وتجلب الهوان.. فأدى ذلك إلى بغض بغيض، وكره كريه، فداس الرجل على مشاعر الأبوة، واستقال من عطفه وحنانه، وتخلص من وشيجة الدم واللحم، وحمل وليدته بين يديه، بعد أن حفر لها، ثم تبرأ من أحاسيسه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ودفنها حية تتنفس، وهى تستجدى بعينيها كل معانى الشفقة والإحسان، ولكنه قد استقال من هذا كله، فيدسها فى التراب، ثم يعود إلى أهله، وقد دفن العار كما توهم، وتخلص من الذل والهوان كما تخيل!

فإذا كان للعربى مبررات فى مقتها، فليس له مبرر من العقل أو الحكمة، أو حتى الفطرة فى وأدها؛ لذا كان القرآن مستنكراً ومستغرباً: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[2].

وأحس الدين الجديد بالظلم الفادح الواقع على الأنثى، فبدأ باستنكار وأدها، وحرمة قتلها، ثم سنّ من الأحكام ما يضمن حقوقها، ويحفظ حياتها، ويرفع شأنها.

وكأن الله ـ سبحانه ـ أراد أن يُكرِّم المرأة أون ما يُكرِّم فى بيت النبوة، موطن الأسوة، ومحل القدوة، فلم يعش للرسول ـ ﷺ ـ من أولاده سوى الإناث،

(1) سورة النحل الآيتان 59,58.
(2) سورة التكوير الآيتان 9,8.

فمنحهن من حبه وعطفه ما تقاصرت دونه رحمةُ راحم أو كرامةُ مكرم. . فكنَّ بضعة منه، يرضيه ما يرضيهن، ويؤذيه ما يؤذيهن. وكانت فاطمة الزهراء قبلة عطفه، ومدار حبه وكرمه. فكانت حكمة الله فى بقاء الإناث لرسوله دون الذكور؛ كأنه نوع من أنواع التكريم لتلك الأنثى، التى كانت بالأمس تنتقل من رحم الأم إلى حفرة القبر، دون اعتبار لإنسانيتها وكرامتها!

وكان الإسلام كريماً مع الأنثى، حين وضع الأجر العظيم، والثواب الجزيل لمن رُزق بناتاً، فربَّاهن وأحسن تربيتهن، وكنَّ باباً من أبواب الجنة والمغفرة.

ورغم ذلك ما زالت هناك غصة فى حُلُوق الكثير من إنجاب الإناث، فإذا بشر بالأنثى بدا الامتعاض على وجهه، وعبس وبسر، ثم اتزوى يفكر، كأن هموم الدنيا قد حُطت على صدره.

وإذا بشر بالولد شكر.وحمد، وصلى وسجد، ولم تسعه الدنيا من فرحته وسعادته؛ فهو - فى نظره - ولى عهده، وحامى ظهره، ومعين له فى حياته، وذكْر له بعد مماته. . ولم يعلم أن هناك من الذكور من يقصم الظهر، ولا يصون العهدَ، ولا يعين على نوائب الدهر، بل قد يجلبها، مع ضيق الرزق، وسعة المصاب!

أما الأنثى فالخير يلازمها غالباً، والرزق يتسع بوجودها دائماً. . هى زهرة البيت الوديعة، وشذاه العطر، وأريجه الفوَّاح. . وهى ركن العطف، وزاوية الود، ومنبع الحنان، وأصل العطاَء. . تفيض وفاءً، وتنبض صفاءً. .

تنصتْ إن تكَلَّمْتَ، وتستجيب إذا ناديت، وتَسعد إذا أعطيتَ. . ترضى بالقليل، وتشكر على الجميل. . تَهلع إن أصبتَ، وتبكى إذا تأخرتَ. .

ملء قلبها الإخلاص، وفيض عطائها لا حد له ولا مقدار. . هل ترى فى دنياك من يمنحك الحب كاملاً، ويهب لك الود خالصاً سوى هذه الأنثى، التى كرهت يوماً مقدمها، وعبست حين نظرت إليها. .

تعتز بك وإن كنتَ فقيراً، وتفتخر بك وإن كنتَ وضيعاً، وتزهو كثيراً، وتعجب كثيراً؛ فكل فتاة بأبيها معجبة!

قد تخلص لك زوجتك وقد تخون، وقد يطيع ولدك وقد يعق، أما ابنتك فهى الكائن الوحيد الذى تثق فى وفائه، وتطمئن إلى إخلاصه، فهى الوحيدة التى لا يختلف اثنان على حبها لك، ويبصم الناس على ذلك أجمعون.

ألا يستحق ذلك أن تعيد النظر، وأن تقبل الهبة من الله ـ سبحانه ـ بطيب نفس، ورحابة صدر: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

فمن قليل الأدب، وسوء الخلق أن تستقبل هبة الله بغضاضة ونفور، بل خذها بقوة، فهى الخير كله، وهى العطاء كله!

---

(1) سورة الشورى الآيتان 50,49.

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا . .﴾

ومريم فى خلوتها خاشعة مطمئنة، يدخل عليها الروح بشراً سوياً، فتضطرب وترتاع، وتستعيذ بالله منه إن كان تقياً، ولكنه يقفها على مهمته، فستنكر الولد ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[1]، فيبلغها أنه أمر الله، ولا راد لأمره وقضائه.

وأحست مريم بالحمل يتحرك فى أحشائها، ويتحرك معه فزعها وحزنها، حتى إذا أجاءها المخاض تأسف مر الأسف، وتأسى أشد الأسى، وتتحسر كذلك ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا﴾[2].

وكأنّا نتطلع إلى مريم البتول، وهى ـ هناك ـ وحيدة تركن ظهرها، وقد أثقلها الحمل إلى جذع النخلة تتوجع وتتألم . . تتراءى لنا علامات الهلع على وجهها، فتنخلع قلوبنا عطفاً على حرج موقفها، ومرارة حزنها.

والحدث موغل فى القدم، ولكن ألفاظ القرآن تجعله حياً شاخصاً، كأنه يحدث الآن . . وفيه نتملى مريم القديسة وقد ابتلاها الله بشىء يتعلق بعفتها وطهرها، وهى التى قد بلغت القمة فى ذلك؛ لتواجه نوعاً من التجريح والاتهام من قِبَل قومها . . ولكنها إرادة الله وسنته مع عباده الصالحين؛ لترتفع من قلوبهم كل حقيقة إلا حقيقة التعلق به سبحانه، ولتتفرغ أفئدتهم من كل صفة إلا صفة التجرد له تعالى، ولا يبلغ هذا الأمر كماله إلا بالابتلاء . . عندها تتعرى القلوب، وتتكشف أمام خالقها، ولينال اللهَ تقواها وطهرها وصفاؤها.

كم كانت مريم عفيفة أيما عفة، وكم كانت طاهرة أى طهارة، وكم كانت منزهة عن المعـــابة كل التنزيه والبـــراءة . . ونحن نراها تهلع كل هذا الهلع حين تحس بالحمل، وقد أجاءها المخاض، وهى التى تعلم عين اليقين أنها إرادة الله ومشيئته،

---

(1) سورة مريم آية 20.

(2) سورة مريم آية 23.

وأنها لم تقترف إثماً، ولم تحمل وزراً، وتعلم كذلك أن الله معها، ولن يتركها أبداً . . ولكنه حس العفاف، وشعور الفطرة، وعاطفة الطهر، وبراءة البراءة . . كم كانت رائعة وهى تهبنا كل هذه المعانى فى مثل موقفها هذا، وكم كانت قمة سامقة تتراءى لكل من تتمسك بالعفة والطهارة، وتتشبث بالعرض والبراءة.

من الوجوب أن تقف الفتيات أمام هذا المشهد طويلاً، وأن يقتبسن كثيراً من عفة هذه العابدة الطهور.

كم أصبحت الفتاة العصرية بعيدة كل البعد عن مثل هذا الطهر السامى، حين راحت تتعلق بأمثلة الحطيطة، ونماذج الوضيعة هنا وهناك!

وكم أصبحت الفتاة دون الحياء، وهى تتخلى أحياناً عن براءتها، وتخلع عفتها خلع الخاتم من الأصبع دون مبالاة، ودون أدنى اكتراث!

وكم أصبحت الفتاة العصرية جريئة كل الجراءة، وهى تفخر بخروجها وتحررها، وتزهو بلهوها ومجونها!

ولما ارتفعت العفة من دنيا المجتمعات المتحررة فى الغرب، وأصبحت الفتاة العذرية غير مقبولة، وغير متحضرة كذلك . . انتقلت إلينا عدواهم، وأصابنا دخن فسادهم وانحلالهم، وصرنا نقلد غير مستبصرين، فَتَفَقدنا العفة تفقد سليمان الطير، فكانت من الغائبين، ولكنها لم تكن غائبة بعذر كما كان الهدهد، ولكنها غابت لأننا تخلّينا عنها كثيراً، وسعينا إلى إخراجها من بين أظهرنا، فدفنت نفسها كالخَبْء، تحتاج منا إلى جهد جهيد لإبرازها وإشهارها.

لقد غدت الفتاة عندنا أكثر جرأة، حين تمشت عارية الساقين، بارزة الصدر، كاشفة الذراع، راسلة شعرها يتهادى فوق كتفيها. تعرض فتنتها للمشترين، لا تمنع إن خاطبها أحد، ولا تدفع من يعترض طريقها، بل تفتخر بكثرة الناظرين إليها، وتعتز بكثرة المعجبين بجمالها وزينتها، وتكترث كثيراً باللاهثين من ورائها . . وهى فى كل هذا تحذو حذو فتاة الغرب، فافتتنت بها، وعَنَتْ[1]

---

(1) خضعت.

لسلطانها . فلا تعد تفرق بين الفتيات وهن يسرن فى أحد شوارعنا الكبرى، وبين مثيلاتهن فى شوارع الإفرنج!

صحيح أن لدينا فتيات يمثلن جوانب مضيئة من الصون والعفاف، وأننا نفتخر بهن، ونعتز بظرهن واحتشامهن، ولكن أمثلة الانحلال قد زكمت أنوف المجتمع، وتصاعدت أدخنتها فسدَّت الأفق، وصارت كالغصة تأخذ بخناقنا، وتجعل الماء الزلال مراً علقماً . . ولكن قمم العفاف مازالت تتراءى أمامنا، وما زال نور الله باقياً، ليس شمعة تُطفئها نفخة؛ بل هو نور يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . .

ولكن نعجب من الإفرنج حين يفسحون المجال للفتاة أن تصادق وأن تخادن(1) من أول يوم تبلغ الرشد، وربما قبله، وتوصم بالتخلف والجمود إن هى حاولت الحفاظ على عفتها، بل أصبح من التحضر لديهم تعدد الصداقات، وتنوع الخيانات، فانتفت العفة تماماً من هذا المجتمع الهالك، واستقل(2) الحياءُ، وحل التبجح والتوقح مكانه، وصار الحفاظ على العرض ضرباً من الخيال، ولوناً من ألوان الجمود والانغلاق . . فتمارس الفتاة - باسم الحرية - ما تشاء من فواحش ومنكرات، وهم الذين يدعون نسباً إلى مريم، وما لهم ومريم الطهور؟! حين تمنت الموت على غير شيء اقترفته غير الاستجابة لمشيئة ربها، ولكنه الإحساس بالطهر يلازمها، وخوف التجريح يُخايل لها من البداية .

إن عفة الفتاة هى أعز ما تملك، وإن عرضها أغلى ما تصون، وليس للحياة قيمة إن غاب الطهر عنها، وليس للفتاة وزن إن فرطت فى شرفها ونقائها .

والفتاة التى تحافظ على عفتها تحس بعزة لا تدانيها عزة، وتشعر بفخر لا يدانيه فخر، وتملك من عوامل الثقة والاعتزاز والاحتفاء ما لا يقدر على تثمينه وتقديره أحد .

تراها واثقة من خَطْوها، مطمئنة إلى طهرها وعفافها، ثابتة على هديها ورشدها .

---

(1) تحب وتصاحب . (2) ارتحل .

أما المفرِّطة فى عفتها فتراها شاردة ضائعة، لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش. تشعر بالمرارة من داخلها، وتذوب كمداً[1] من ذاتها وتتبعثر فى يدها كل معايير الثقة والاعتزاز، وتنهار حياتها قطعاً لا يمسكها سبب، وتتلمس الضياع فتجده، وترى الشتات فتبصره، وتناجى السخط فيستجيب لها!

ولكن الفتاة لا تقدم على التفريط فى عفتها إلا إذا بلغت مستوى حاداً من الهبوط والانحطاط، ولا يبرر وقوعها فى الخطيئة ـ مهما كانت الأسباب والضغوط ـ إلا دناءة النفس، وخسة الطبع، وتدنس الأخلاق.

وحفاظ الفتاة على طهرها هو من الفطرة؛ فهى تدافع عنه وتصونه من كل شائبة، وتعض عليها بالنواجذ؛ لأن فطرتها تلح عليها فى ذلك.

والفتاة حين تكون عفيفة، فإنها تكون قد حصلت على أكبر شهادة فى حياتها. هذه الشهادة تؤهلها للعيش الكريم، والتقبل المرضى، والزواج العفيف.. وتوقير المجتمع، واعتزاز الأهل والعشيرة. فالعفة تاج على رأس الفتاة الحيية، التى تخاف ربها، وتتمسك بتعاليم دينها، وتحافظ على كل عرف مفيد، وعلى كل تقليد صالح.

ومن غرائب هذا العصر أن صارت الفتاة ـ إن هى ضلت وغوت ـ تتلمس عذريتها من طرق غير شرعية، وأصبح الحفاظ على «العفة الاصطناعية» سهلاً لا عنت فيه ولا مشقة!

وهذه فتنة تمد لهيبها نحو المجتمع، وترفع رأسها دون قص أو خفاء، وهذا نوع من أنواع الخلط والتدليس خطير، ومظهر من مظاهر المكر والخداع شديد، ودليل من أدلة التبجح والفسوق رعيب.. ولكنه فتنة من فتن هذا العصر الأخير!

إن الفتاة المسلمة تزال فى خير، إن هى ابتعدت عن الفتن ما ظهر منها وما بطن، وابتعدت كذلك عن عدوى الحريات الزائفة، والأفكار الخادعة، ثم استقامت على تعاليم دينها، ورجعت إلى حيائها المعهود، وطهرها المنشود، وتمثلت مريم البتول فى كل موقف من مواقف هذه الحياة المتصارعة من حوالينا.ـ

(1) حزناً.

﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

يتطلع المؤمن إلى تلك الحورية، تتراءى حياله، وهو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً . . حورية من جنات عدن، ساكنة فى قصر معمور، على سرر هنالك موضونة، تتشوق إلى ذلك العابد المنيب، تنتظر مقدمه، وترقب طلعته، تريحه من دنس هذه الدنيا، ومن عفن تلك الدار . . فلم تُخلق إلا له، ولن تجالس إلا إياه، قاصرة الطرف لا ترى غيره، ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كأنها الياقوت والمرجان، أو كأنها بيض مكنون.

لو قلتَ أبهى من القمر لأعليتَ قدره وشأنه، ولو قلتَ ينبع الحسنُ منها لتكلم فخراً بأصله، وتيهاً بنسبه، ولو تفتق النور من طلعتها لزاد إشراقاً وتنويراً . . تتقاصر دونها أحلام الحالمين، وتتضاءل حيالها خيالات العاشقين، ورؤى المرهفين . . ينقلب إليك القلم عند وصفها خاسئاً وهو حسير، ويرتد الخيال عند تصورها حائراً وهو شريد . .

قد اصطنعها الله للقانتين، لا يطرق بابها إلا مؤمن صالح، ولا يدخل حجرتها إلا عابد زاهد، ولا ينال رضاها إلا تقى صبور . . قد طهرت من كل دنس، وكملت من كل نقص . .

قد يحظى بها أشعث أغبر دون غنى مختال، وقد يسعد بها فقير وضيع دون متكبر جبار، وقد يظفر بها مظلوم مقهور دون ظالم جحود!

هل صادفتك فى هذه الدنيا حسناء، أذهب عقلَك جمالُها، وأذهل فكرك بهاؤُها، وطير لبَّك زينتُها وطلعتُها، وملكت من القلب شغافه، ومن النفس مشاعرها وعواطفها . . تهب فى ودها كل غال ورخيص، وتمنح فى وصلها كل تالد وجديد، وقد تنول وقد لا تنول، وقد تأمن مكْرها وقد تخون، وقد تحيى لوصلها وقد تموت، وعند الوصل قد يطول الود وقد يزول . . لها حيض ونفاس، ويعتريها برء وأسقام، وحمل ورضاع . . لها رمص وغمص، وعَذِرة وكدر . . إن رضيت منها خلقاً كرهت منها آخر . .

هذه هى امرأة الدنيا، أُمرت بالصبر على نقصها؛ لتنال تمامه فى هذه الحورية، ونهيت عن زينتها وفتنتها؛ لتحظى بالزينة الكاملة يوم الدين.

بيد أنك تلهث وراء امرأة الدنيا، وتُفتن بجمالها كل فتنة، وتُخدع بالمظهر الكاذب أيما خداع، وتغشى على بصرك صورة السحر الماكر، ثم تشقى من أجل الحصول عليها.. وقد تُذل وتُهان، وقد تُذم وتُعاب، وقد لا تلتفت إلى خلق ودين، ولا تبحث عن حياء وعفة، أو تستر وحشمة.

وفى صراعك المرير هنا تنسى هذه الحورية.. وهى منك على مرمى البصر، تتراءى إليك من قصرها الذهبى الوضّاء، أو على ضفاف الأنهار، فى جنات العزيز الغفار.

ألا تستحق منك عزمة فتية، أو فزعة ناهضة، أو حماسة فى غير كلال.. ألا تستحق ركيعات الليل، واستغفار الأسحار، وطاعة الواحد القهار؟!

لماذا تستبعد مقدمها؟ وتهجر أسباب وصلها وقربها.. اطلب يدها، فهى لن تقبضها عن مطيع منيب، ولا عن مريد عفيف.. ولكن مهرها معلوم، وصداقها معروف، لا درهم فيه ولا دينار؛ بل حسنات تتلوها حسنات!

إخالك مهموماً حزيناً، إن فاتتك امرأة تحبها، أو حسناء تهواها، كأنْ ليس فى الآخرة عوض عنها.. ألا تحسب وراء هذه الحياة حياة، ودون هذا العناء حبور وهناء؟..

حاول أن ترفع الغشاوة عن عينيك رويداً رويداً.. تتراءى لك حورية وحورية، وحسناء تتبعها حسناء.. أنت الآن تتخطى حدود الزمان والمكان، وتتخلص بشفافية الإيمان من ملصقات الطين ووشائج الدماء.. واصلْ تَحلّقَك، وتابع صدق رؤياك، وحاول أن تفتح عين اليقين؛ لتبصر ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

الفهرس

تابع الفهرس